الأستاذ الباحث: زهير عزيز
جامعة الحسن الثاني/المغرب
Zouhair.azziz@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2018-11-27	2019-01-28	2019-03-22

تمهيد:

نبت الخطاب وترعرع في حضن اللسانيات الحديثة، ولقي المجال شاسعا في المنحى الوظيفي المؤسس على الأبعاد التداولية. لكن الذي يدفعنا دائما إلى العودة لما خلّفه تراثنا العربي من إرث علمي وفكرٍ لغويّ رصين؛ هو درجة فهمهم العلومَ وضبطهم المفاهيمَ وتوظيفها بشكل أنطولوجي، وقدرتهم على صياغةِ تصوراتهم بشكل شُمولي تكاملي واضح المعالم. " فالمصطلحات التراثية تشكل رصيدا مشتركا لابد من الإفادة منه على نحوٍ واضح في إيجاد المصطلحات اللغوية الحديثة "[1]،لذا نجدهم وظفوا مفاهيم تتقاطع مع الخطاب وتعبر عنه في كثير من الجوانب؛ كالكلام والكلمة والنص واللفظ المركب والخطابة، واستطاعوا بفضل هذه المفاهيم أن يثبتوا جدارتهم في الحقلين الأدبي والنقدي وفي النحو والبلاغة وأصول التفسير والكلام وعلوم اللغة.

فالخطاب مفهوم "مائع متعدد الدلالات"[2] أضحى من التعابير الاصطلاحية الأكثر استعمالا وتداولا وفعّالية في العلوم الإنسانية والمجالات المعرفية. فمنهم من أخضعه إلى رؤية اختزالية وغائمة أوقعته في مزالق دلالية، ومنهم من استوعب المفهوم في سياقه العام واستطاع أن يَصوغ رؤية شاملة تتوخى وضوح الأدوات المنهجية والمنطلقات النظرية عوض الالتجاء إلى التجزيء والتفييء. لذلك يرى ميشيل فوكو أن الخطابَ نظامٌ من المفاهيم والمصطلحات التي ينبغي على مؤرخ الخطاب أن يكون في غاية الحذر أثناء تعامله معها، من بين تلك المفاهيم نجد مفهوم التحقيب (Périodisation) الذي يوظفه في تقسيم الخطاب إلى مجالات زمنية بنيوية، ومفهوم الانفصال (Rupture) الذي يعني كل ما يقع من تحول في بنية الخطاب من حقبة إلى أخرى؛ أي ما ينتج عن

الانفصال من قطائع معرفية وانتقال جوهري[3]. وأدرك فوكو بذلك وأثناء تنقيبه عن نظم المعرفةِ المجالاتِ المتعاقبةَ للخطاب في التاريخ، ليضبط تُخومها ويلمّ شعتها. فالخطاب الذي يندرج ضمن مجال ما؛ هو الخطاب الذي يعدّ منطقيا ومقبولا من قبل المتعايشين في ذلك المجال، فهو بتعبير فوكو" الخطاب الذي يتحرك ضمن دائرة الصدق".[4] وفي هذا الإطار يمكن قراءة هذا المفهوم ومحاولة تأصيله وفق تسلسل زمني يستدعي أرضية تتكامل فيها المعارف وتتحاور فيها الحقول رغم اختلافها وتباعدها.

الكلمات المفاتيح : الخطاب- الأبعاد التّداولية- لسانيات الوضع- لسانيات الاستعمال – البلاغة (المدرسة البلاغية المغربية)- النقد الأدبي .

1- المعجم العربي:

إن القبض على مفهوم الخطاب ودرجة تداوله في التراث العربي؛ هو أمر بالغ الأهمية، لما له من جذور ضاربة في التاريخ، استطاع أن يتّخذ له معنى متواضعا عليه، وموطئ قدم واضح في كل الحقب والأزمنة التي وُجد فيها. فقد ورد في معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي بمعنى " الأمر الذي تقع فيه المخاطبة"[5]. وهو لاشك ذلك السّياق الذي يوفر لنا إمكانية تبادل الخطاب الذي يحصل معه فعل التخاطب والمراجعة.

ولعلّ هذا ما سعى إلى تأكيده اللغوي الشهير - أحمد بن فارس – في معجمه (مقاييس اللغة) لما قال في مادة (خطب) : " الخاء والطاء والباء أصلان: أحدهما الكلام بين اثنين، يقال: خاطبه يخاطبه خطابا، والخطبة: الكلام المخطوب به، والخَطب: الأمر يقع، وإنما سمّي بذلك لما يقع فيه من التخاطب والمراجعة.[6] أما العلاّمة -جار الله الزمخشري- فقد أضاف إلى مفهوم الخطاب خصّيصة البلاغة والإبانة والإفصاح عن الحقيقة في قوله " خطب فلان أحسن الخطاب، والخطاب هو المواجهة بالكلام... واختطب القوم فلانا دعوه إلى أن يخطب إليهم بخطاب، وتقول له : أنت الأخطب البيّن الخطبة "[7]. ويظهر أنه قد ربط الخطاب بمصدّره (الخطيب) وظروف إنتاجه حتى تُتاح إمكانية فهمه بشكل تلقائي؛ فهذه الحيثيات المحيطة بالخطبة كلّها تساهم في بناء المعنى وحصره في سياق محدد، كما يبدو جليا في (المختار الصحاح) لأبي بكر عبد القادر الرّازي الذي جعل من الكلام "مخاطبة"، والخطبة "فعلا على المنبر"[8] ؛ فهما وجهان لعملة واحدة يلتقيان في الخطابة وبلاغة اللسان.

في حين جمع – جمال الدين ابن منظور- هذه الإشارات ونظمها أحسن تنظيم في لسان العرب ضمن مادة (خطب) في قوله " خطب: الخطب: الشأن أو الأمر، صغر أو عظم؛ وقيل: هو سبب الأمر، يقال: ما الخطب؟ أي ما أمرك؟ وتقول: هذا خطب جليل، وخطب يسير، والخطب: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال: ومنه قولهم: جلّ الخطب أي: عظم الأمر والشأن. وفي حديث عمر، وقد أفطروا في يوم غيم من رمضان، فقال: الخطب يسير، وفي التنزيل العزيز قال: ما خطبكم أيها المرسلون، وجمعه خطوب...والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، والخطبة مصدر الخطيب، وخطب الخاطب على المنبر، يخطب خطابة، واسم الكلام: الخطبة، والخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر.[9]

والأكيد أن -الفيروزآبادي- قد أحاط بمعنى "الخطب"؛ وهو ذلك الأمر العظيم الذي تقع فيه المخاطبة، وركّز في مصنّفه (القاموس المحيط) على الإعراب عن دلالة الخطبة التي تنضوي تحت لواء "الكلام المنثور المسجع ... والمخاطبة حسبه هي مراجعة الكلام"[10]، في حين انشغل أبو البقاء الحنفي الكفوي بحدّ الخطاب لفظاً ودلالةً ضمن كتاب "الكليات" حيث اكتفى بالقول " الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الإفهام؛ إفهام من هو أهل للفهم، والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطابا"[11] . والمستفاد من هذا التحديد أن -الكفوي- يضع شرطا ثابتا لتحقيق المنفعة المتوخاة من الخطاب، ويبقى هذا الشرط رهينا بالقصدية ونية المتكلم؛ فالمتحدث الذي لا يبحث في إمداد المستمع بفحوى رسالته يكون غير قادر على التواصل، والمتلقي بدوره يفترض فيه أن يتهيّأ لاستقبال الخطاب ورسائله التي لا تخرج عن المألوف، وما هو متواضع عليه عند العرب.

وبالعودة إلى مادة (خطب) وتداولها في كلام الله علا وجلا - القرآن الكريم- نجدها قد وردت في تسعة مواضع: (أربع مرّات بلفظ الخَطْب) و(مرّتين بصيغة الفعل خَطَبَ) وثلاث مرّات بلفظ الخطاب وهي:

1. **قال تعالى: (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) – سورة ص: الآية 20.**
2. **قال تعالى: (فقال أكفلْنيها وعزّني في الخطاب) – سورة ص: الآية 23.**
3. **قال تعالى: (ربّ السموات والأرض وما بينهما الرّحمن لا يملكون منه خطابا)– سورة النبأ: الآية 37.**

نستشف من كل ما سبق ذكره أن مفهوم الخطاب في التراث العربي القديم قد وقع تأصيله إلى أن استوى على الصيغة التداولية، وانتقل إلى تحقيق حاجة المتكلم وأغراضه التواصلية، واهتم بالأخر من خلال البحث عن إفهامه وإقناعه، فهو لا يعدو أن يكون حسب (التهانوي) سوى "كلام موجه نحو الغير للإفهام" [12]، ولتحقيق هذه المرامي التواصلية يفترض حضور طرفي الكلام (المتكلم والمستمع) فضلا عن سياق يحصر الخطاب في زاوية ويحد من عبثية تأويله، وهذا لا يتأتى إلا بامتلاك معارف عامة وخلفية مشتركة.

2- المعجم الغربي:

إن كلمة خطاب في المعاجم الغربية تستجيب لكل الحمل المصطلحي والزخم المفهومي والنقدي والفلسفي لكلمة (Discours) الفرنسية، المأخوذة من الأصل اللاتيني (Discurerre) التي تعني"الجري هنا وهناك " أو "الجري ذهابا وإيابا"[13] وتدل على الجدل (Dialectique) والعقل أو النظام (Logos)عند أفلاطون[14]. ولم تأخذ معنى الكلام إلا في أواخر العهد اللاتيني حيث أصبحت تدل على الحديث والمقابلة قبل أن تعبر عن كل تصور حامل لفكر ما شفويا أم مكتوبا. وتجدر الإشارة إلى أن البلاغة اليونانية (بلاغة اللوغوس) والبلاغة اللاتينية (بلاغة الخطابة)؛ تمثلان بلاغة الخطاب[15] ، مما يدل على أن تاريخ كلمة خطاب وتاريخ استعمالاتها تتوازى وتاريخ الفكر الإنساني.

وبالنظر إلى أهم ما تداولته المعاجم الغربية، وحملته من معاني ودلالات لكلمة (Discours) نجدها في معجم- **لالاند** - "تعبر عن الفكر وتطوره بواسطة متوالية من الكلمات والقضايا المتسلسلة المترابطة" [16]. ويورد معجم – **روبير الصغير**- عدّة دلالات لهذا الحقل المعجمي(Discours)من أهمها :

- ❖ الموضوع الذي نتكلم فيه (حوار أو محادثة).
- ❖ خطبة شفوية أمام جمع من المستمعين.
- ❖ كتابة أدبية تعالج موضوعا بطريقة ممنهجة.
- ❖ التعبير اللفظي عن الفكر الذي يوازي الكلام.
- ❖ قد يعني ملفوظا لغويا قابلا للملاحظة لجملة ومتوالية من الجمل المنطوقة، ونص مكتوب وذلك على النقيض من النسق المجرد للسان.
- ❖ عالم الخطاب أي مجموع سياقاته.[17]

أما قاموس – لاروس الجيب- فيحمل في تحديده بعض ملامح الأسلوب الذي سلكه ابن منظور من حيث المخاطبة أو فعل التخاطب الذي يشكل قطعة شفوية هدفها الإقناع، فهو "متوالية من الكلمات المشكلة للغة .[18] في المقابل صاغ معجم -دوبوا وآخرون- (1994) أربعة تحديدات جوهرية لامست جوانب بلاغية حجاجية ولسانية لغوية، توازي بين الخطاب والجملة واللفظ، وتحصر أدوارهما في التوجبه والإقناع بخاصة والتواصل بعامة.

والملاحظ في هذه التحديدات والتعاريف أنها تؤول بنا بشكل أو بأخر إلى تحديد العلاقات التي ينشئها الخطاب مع اللغة والفكر والمجتمع الذي ولد فيه. فالكلام مهما كان منطوقا فهو ليس إبداعا خالصا لمنتجه وحده، ومهما كان مكتوبا فهو ليس صنيع الكاتب وحده. بل هو في كل الأحوال إنتاج مشترك بين مصدّره ومتلقّيه بحجة الإقناع والتأثير.

ويقدم أصحاب – **معجم اللسانيات** – (1973) ثلاث تحديدات للخطاب هي :

أ- يعني اللغة في طور العمل أو اللسان الذي تستعمله ذات معينة بغرض التعبير والتواصل.

ب- الخطاب ملفوظ يوازي أو يفوق الجملة، ويتكون من متوالية تتشكل منها رسالة م ذات بداية ونهاية.

ت- الخطاب ملفوظ يتعدّى الجملة منظورا إليه من وجهة قواعد تسلسل متتاليات الجمل. [19]

لقد أضحى الخطاب في معجم اللسانيات يحمل صبغة تواصلية، ويشكل وعاء حاملا للغة في طور العمل، علاوة على موازاته الجملة من جهة تسلسلها وترابطها. وقد يقابل هذا الخطاب النص حينما يحيل على علاقات ووحدات تركيبية قد تصل إلى الحدّ الذي تتخذ فيه إجراء سميوطيقيا يميز بين الكفاءة السردية للعلامة والكفاءة الخطابية كما هو الحال في معجم (غريماس وكورتيس). [20] وبالاستناد إلى هذه القواميس الغربية جلّها؛ نكتشف أن الخطاب كلام وكتابة وملفوظ تتحكم فيه السياقات والمعارف العامة التي تحيط به، ويسعى في عمقه إلى الإقناع والإلحاح وخلق التفاعل.

3- مفهوم الخطاب وملامحه الوظيفية في النحو والفكر اللغوي العربي القديم:

أ)- سيبويه (ت 180هـ) :

يعدّ "كتاب" سيبويه من أهم مصنّفات النحو العربي منذ نشأته على يد أبي الأسود الدّؤلي (ت69 هـ) حفاظا على سلامة كلام الله علا وجلا، واللغة العربية من اللحن والرطانة التي شاعت بسبب مخالطة الأعاجم ومجاورة الفرس. ولقد أثار هذا المؤلَّف زوبعة كبيرة في أوساط جمهور النحاة في عصره، وأمسى يصنّفه المعاصرون ضمن البحوث المؤسسة لعلم اللغة بعامة واللسانيات النّصية بخاصة؛ بما يحويه من قواعد منظمة لكلام العرب وآليات تحليل الخطاب العربي، وانفتاحه على علم الأصوات ومخارج الحروف والنحو والبلاغة. ومقاربة مفاهيم ذات صلة وثيقة بالكلام في سياقه العام وظروفه المقامية وأحوال المستمعين وأغراض المتكلمين والأدوات التي من شأنها إنجاح العملية التخاطبية كما هو الحال في اللسانيات التداولية والبلاغة العربية.

يتحسس القارئ لكتاب سيبويه فرادَتَهُ في التناول ودقّته في وصف الظواهر اللغوية والأحكام النحوية، وقدرته على اقتراح مفاهيم وصياغتها في أسلوب تَتَساوقُ معانيه مع الألفاظ التي يُوظفها في الشرح والتطبيق. فلم يثبت أن استعمل ملفوظ (الجملة المفيدة) للتعبير عن الكلام، وإنّما اكتفى بلفظ (الكلام) الذي يرادف اصطلاح (الخطاب) في تصور لسانيات الوضع (Linguistique de situation). وبهذا يتّضح أنه يُدرك ارتباط الجملة بالكلام المتصل والعناصر المقامية التي تحيط به، والبنى الاجتماعية والنفسية والتاريخية التي يرتكز عليها. يراعي فيها أحوال المخاطَب وظروف إنتاج الخطاب أو الكلام الحي التفاعلي. يقول في كتابه " هذا بابٌ يكون المبتدأ فيه مضمرا ويكون المبني عليه مظهرا، وذلك أنك رأيتَ صُورة شخص فصَار آيةً لك على معرفة الشخص فقلتَ : عبد الله وربّي، كأنّك قلتَ : ذاك عبد الله، أو هذا عبد الله، أو سمعتَ صوتا فعرفتَ صاحب الصّوت فصار آيةً لك على معرفته فقلتَ : زيد وربّي. أو مَسَسْتَ جسداً أو شَمَمْتَ ريحاً فقلت : زيد، أو المسكُ. أو ذقت طعاما فقلت: العسل. ولو حُدِّثْتَ عن شمائل رجل فصار آية لك على معرفته لقلت: عبد الله. كأن رجلا قال: مررت برجل راحم للمساكين بارٍّ بوالديه فقلت : فلان والله " [21].

ولاشك في أن هذا النص فريد في نوعه؛ لكونه النص الوحيد الذي يُشير إلى الحواس الإنسانية الخمس جميعا في عملية التواصل وبناء سياق الكلام، إذ تقوم هذه الحواس بدور كبير في إنشاء بنية الكلام بغياب عنصر المخاطَب الذي يشارك المتكلم في عملية التخاطب والتفاعل.[22] فالكلام يتألف من عناصر لغوية لسانية تتجلى في الإشاريات أو المبهمات التي يفصح عنها السياق. لكن أيضا وفق تصور سيبويه في هذا النص، فإنه يرتكز على بُنى خارجية وظروف مقامية بالمعنى الواسع التي تحيط بالكلام، نراها أو نسمعها أو نشمها أو نذوقها باستعمال الحواس الخمس التي تقودنا إلى الحال والمعنى المقصود.

ويفرّق سيبويه بين الكلام والكلم حيث يستهل حديثه في كتابه بقوله "هذا باب علم ما الكلم من العربية" [23] ، وقد حاول أبو الفتح عثمان بن جني تفسير ما يرنو إليه سيبويه في قوله " فاختار الكلم على الكلام، وذلك أن

الكلام اسم من كلّم بمنزلة السّلام من سلّم، وهما بمعنى التكليم والتسليم، وهما المصدران الجاريان على كلّم وسلّم، قال الله سبحانه (وكلّم الله موسى تكليما) – النساء 164- وقال عزّ اسمه (صلوا عليه وسلّموا تسليما) – الأحزاب 56 – فلما كان الكلام مصدرا يصلح لما يصلح له

الجنس ولا يختص بالعدد دون غيره عدل إلى الكلم الذي هو جمع كلمة بمنزلة سليمة وسلم ونبقة ونبق وثفنة وثفن، وذلك أنه أراد تفسير ثلاثة أشياء مخصوصة وهي الاسم والفعل والحرف، وجاء بما يخص الجمع وهو الكلم وترك ما لا يخص الجمع وهو الكلام، فكان ذلك أليق بمعناه وأوفق لمراده "[24] .

فالكلم يدل على الكمّ، واحده كلمة، أما الكلام فهو اسم مفرد يعبر عن المعنى القائم في النفس الذي تدل عليه العبارات والجمل الخبرية والإنشائية. ولا يستقيم – الكلام- إلا إذا استقام مع ما ألفته العرب وتقوّلت به وتحدثت عنه، قال سيبويه في باب الاستقامة من الكلام والإحالة "**.... فمنهم مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب:**

فأما المستقيم الحسن فقولك : **أتيتك أمسٍ وسآتيك غدا.**

وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول : **أتيتك غدا ، وسآتيك أمس.**

وأما المستقيم الكذب فقولك : **حملت الجبل وشربت ماء البحر، ونحوه.**

وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: **قد زيدا رأيت، وكي زيد يأتيك، وأشباه هذا .**

وأما المحال الكذب فأن تقول: **سوف أشرب ماء البحر أمس.** [25]

ويجسد المتكلم عند سيبويه مثالا يُحتذى به في وضع أسس علم النحو، واستئصال الكلام المستقيم من القبيح والكذب والمحال، دون إقصاء المعاني البلاغية والمقام التواصلي ومقاصد المتكلمين. ويبنى هذا الكلام بالتركيب بين المسند والمسند إليه الذي"لا يغنى واحد منهما عن الآخر،ولا يجد المتكلم منه بدّا"[26]. والمتأمل لهذا الكتاب يجده نسقا ينهل أطرافا من كل شيء، من النحو واللغة والبلاغة في قالب يسوده الانسجام. ومن الأدوات والمصطلحات المستعملة في التأسيس لهذا الخطاب نجرد الآتي : المجاري - الاستقامة -الأصل والفرع -الإحالة - الكذب -الحدّ -القبيح -الكلام -الاستحسان - الحديث ... .

ب)- أبو الفتح عثمان بن جني (ت 392 هـ) :

لقد استوى مفهوم الخطاب في التراث العربي وصار موضوعا مستقلا بذاته، تجاوز معاني اللفظة الواحدة وحدود الجملة واستقرّ عند أغراض المتكلم الذي يكشف عن رسالته بما هو أوسع من الألفاظ والجمل؛ يقدّم أبو الفتح عثمان بن جني في مصنّفه "الخصائص" مفهوما للكلام الذي يرادف الخطاب في قوله "هو كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحويون الجمل، نحو: زيد أخوك، وقام محمد، وضرب سعيد، وفي الدار أبوك، وصه، ومه، وخاء وعاء في الأصوات. فكل لفظ استعمل بنفسه وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام "[27]. وحتى لا يعتقد المتلقي أن الكلام هو اللفظة المفردة؛ استدرك ابن جني الأمر وأزال اللبس الحاصل بقوله " فلما أراك فيه أن

الكلام هو الجمل المستقلة بأنفسها الغائبة عن غيرها، وأن القول لا يستحق هذه الصفة من حيث كانت الكلمة الواحدة قولا إن لم تكن كلاما [28] .

وقد سبق أن أحدث سيبويه قطيعة بين الكلام والقول وساهم في إخراج الثاني من حيّز الأخر في قوله "اعلم إن قلت إنما وقعت في الكلام على أن يحكى بها ما كان كلاما أو قولا، ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول إجماع الناس على أن يقولوا (القرآن) كلام الله ولا يقولوا (القرآن) قول الله.[29] فالقرآن الكريم خطابٌ موجه إلى البشرية في كل أصقاع الكون، يأمل ببيانه وقوة المعاني التي ينتجها أن يستقرّ في قلوب سامعيه. فهو كلام نسقي يشد بعضه بعضا بإحكام، ينفرد باتساق تراكيبه ويقوى بانسجامه لكأنه بؤرة واحدة. ولعل هذا ما تنبّه إليه سيبويه حتى حَصَرَ الكلام في خانة الإفادة ونزعها عن القول. لذا كان من الضروري أن يرتبط الكلام بنظم الألفاظ وترتيبها ترتيبا غير مخل بالصور التي يصبو إلى التعبير عنها.

وقد خصص -ابن جني- بابا جعله من أشرف الأبواب وأنبل فصول العربية وأكرمها على الإطلاق، يتعلّق بشجاعة العربية وبساطة الكلام للتواصل والإفهام؛ وتفسيرُ الشجاعة هنا بإقدام الخطاب في العربية على طريق من التعبير لم تقدم عليها غيرها من اللغات. يقول في هذا الباب " اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والحمل على المعنى والتحريف".[30] وتدخل خصيصة الحذف في الاقتصاد في اللغة بمعنى الإيجاز مراعاة للعملية التواصلية؛ فكلما أوجز المتحدث خطابه كلّما كان بليغا مؤثرا، وسمة الإعراب تضمن سلامة المعنى وإن حصل فيه التقديم أو التأخير، كما تؤشر هذه الشجاعة على تنمية اللغة لتشتمل الحاجة الإنسانية في تحقيق البعد التواصلي بما يتوازى مع ترمي إليه اللسانيات التداولية والبلاغة العربية.

ويرتبط مدلول الخطاب/الكلام عند أبي الفتح عثمان بن جني بأحد مسالكه وهي **"اللغة"** التي يحدّها في قوله " هي أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم" [31]. ويتسم هذا الحدّ حسب – الباحث محمود فهمي حجازي- بالدقة والصرامة في رسم الوظائف التي تؤديها اللغة؛ المتمثلة في الوظيفة الاجتماعية في التعبير ونقل الفكر والوظيفة النفسية والطبيعة الصوتية، وتنوع البنية اللغوية من مجتمع لأخر[32]. ويشكل هذا التحديد الدقيق كذلك نواة أبحاث متعددة قدّمها الطّرح الوظيفي المؤسس على الأبعاد التداولية في الدرس اللساني المعاصر، الذي يعتبر اللغة فعلا حيويا يُنجز إبان التكلم وتصدير الخطاب.

ت)- ابن مالك الأندلسي(672 هـ) وابن آجرّوم الفاسي (723 هـ) وابن هشام الأنصاري (761 هـ).

اكتسى مفهوم الخطاب حمولة متداخلة من الرؤى والمعارف جعلت منه مدلولا مركبا، وظفه النحوي ابن مالك الأندلسي في ألفيته موازيا للكلام في قوله :

كلامنا لفظ مفيد:كاستقم واسم،وفعل،ثم حرف.الكلم

واحده كلمة والقول عم وكلمة بها كلام قد يـــــــؤم.

يقتصر هذا التحديد على الاصطلاح عند النحويين، ولعل قول ابن مالك (ت 672) "كلامنا" خير دليل على ذلك، لذا فهو بمثابة اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها،كما استغنى عن ذكر تتمة التعريف بإيراد مثال " استقم " الذي لا ينتظر السامع بعد التقاطها ما يتم معناها أو يفسرها. وقد يراد بالكلمة الكلام؛ من ذلك قوله تعالى " **حتى إذا جاء أحدكم الموت قال ربّ ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها** " (المؤمنون 99-100) ،وقال الرسول صلى الله عليه وسلم " أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: **ألا كل شيء ما خلا الله باطل** " [33].

والجدير بالذكر أن ابن آجروم الفاسي (ت723) قد استهل "آجروميته" بالحديث عن الكلام وما يتألف منه، حتى يتخذ منه سبيلا في شرح النحو وتبسيطه؛ يقول رحمه الله " الكلام هو اللفظ المركب، المفيد بالوضع. وأقسامه ثلاثة : اسم ، وفعل، وحرف جاء لمعنى، فالاسم يُعرف؛ بالخفض، والتنوين، ودخول الألف واللام، وحروف الخفض هي: من وإلى عن وعلى وفي وربّ والباء والكاف واللام، وحروف القسم وهي: الواو والباء والتاء. والفعل يعرف بقد، والسين وسوف وتاء التأنيث الساكنة، والحرف ما لا يصلح معه دليل الاسم ولا دليل الفعل."[34] وأما تصور ابن آجروم تجاه الكلام فيتأسس على أربعة دعائم: أولها اللفظ معناه النطق باللسان أو ذلك الفعل الحيوي الإنجازي. وثانيها المركب تركيبا إسناديا تحصل به الفائدة. وثالثها المفيد بحيث لا يتشوف بعده السّامع إلى غيره، وأخرها الوضع أن يكون الواضع لها قاصدا وضعه، وبذلك كلام السكران والمجنون والنائم والهاذي....لا يسمى كلاما لأن واضعه ليس قاصدا له، أو أن يكون بالوضع العربي. [35] فلا مناص إذن من حمل الكلام على القصد البيّن، وإلزامية ربطه بالقياس على الوضع العربي السائد في وسطنا من قرآن وحديث وشعر وباقي النظوم الأخرى. فلا يصح اعتبار كل قول يلقى على عواهنه كلاما.

وأما ابن هشام الأنصاري(ت761هـ) النحوي المصري الذي كان شديد النزوع والميول إلى المدرسة البصرية دون تعصب أو ذاتية؛ يقول فيه ابن خلدون " ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له : ابن هشام أنحى من سيبويه"[36]. والملاحظ أنه -ابن هشام- قد فرّق في تحديده مفهوم الكلام بين معنيين: الأول اصطلاحي يشمل القول المفيد المقصود. والثاني لغوي يطلق على ثلاثة أمور: أحدهما الحدث الذي هو التكليم كقولك: أعجبني كلامك زيدا أي تكليمك إياه، والثاني: ما في النفس مما يعبّر عنه باللفظ المفيد، وذلك كأن يقوم بنفسك معنى " قام زيد" أو " قعد عمرو" ونحو ذلك؛ فيسمى ذلك الذي تخيلته كلاما.... والثالث: ما تحصل به الفائدة سواء كان لفظا أو خطا أو إشارة أو ما نطق به لسان الحال."[37].

وبهذا يكون (ابن هشام) قد حسم في قضية الإشارة والخط وباقي العناصر الأخرى بعدّها كلاما، ما دامت هذه الأطراف تدل على معيّن واضح وجلي؛ في طرح يخدم العملية التواصلية والبعد التداولي، بما يدفعنا إلى استحضار الجرجاني (ت 471) الذي استنجد هو الأخر بالنّحو لإنجاح العملية التخاطبية، حيث يقول فيه عبد السلام المسدي " إن النهج الذي سلكه الجرجاني لا لشيء إلا لأنه يعبر عن مقاصد المتكلم وأغراض الناطق"[38].

4- الإرهاصات التداولية لمفهوم الخطاب في علم الأصول :

اسْتُعْمِلَ مفهوم الخطاب في التراث العربي وورد منوطا بحقل علم الأصول، وشكّل العصب الأساس والرّكيزة المحورية لأبحاث الأصوليين التي تسعى إلى "معرفة دلائل الفقه إجمالا، وكيفية الاستفادة منها، وحال المستفيد "[39]. وتبقى الشريعة في أصلها كتلة من النصوص تتجسد في الخطاب الشرعي، ولا يفهم هذا الخطاب إلا بالاعتماد على مقاييس علمية وضوابط منهجية وقواعد استقرائية شرعية. وقد عدّ علماء السنة الإمام الشّافعي (ت 206 هـ) مؤسسا لعلم أصول الفقه ومجددا له من خلال كتابه الموسوم ب(الرسالة) التي ترجمت إلى لغات عديدة منها الفرنسية والانجليزية والهولندية... ويقر الجويني (ت 448 هـ) " أنه لم يسبق الشّافعي أحد في تصانيف الأصول ومعرفتها "[40] ؛ ويعرف الخطاب بقوله" الكلام والخطاب والتكلم والتخاطب والنطق واحد في حقيقة اللغة وهو ما يصير به الحي متكلما"[41]، في حين جعل منه الإمام الغزالي أبو حامد (ت 505 هـ) في (المستصفى) " اسما مشتركا قد يطلق على مدلول العبارات، وهي المعاني التي في النفس كما قيل إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا، وقال الله تعالى ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول (المجادلة -8) وقال تعالى وأسروا قولكم أو اجهروا به(الملك– 1)فلا سبيل إلى إنكار كون هذا الاسم مشتركا "[42]، ونحا الآمدي (ت 631 هـ) البعد التداولي للخطاب واستطاع أن يصوغ لنا مفهوما شاملا في قوله " هو اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه"[43]، كما لو أن هذا الخطاب هو في أصله نسيج تتم حياكته وفق مقاس متقبله ومتلقيه؛ نلمس فيه شيئا من الغلو والمبالغة في الاهتمام بالآخر المقصود وموضوع الخطاب وفحواه،خاصة لما جعل اسما مشتركا حاملا للانفعالات النفسية للمتكلم / المخاطب. وأما الإمام علي بن عبد الكافي السبكي (ت 756هـ) فقد استعمل مفهوم الخطاب في سياقين في قوله " وحصل في الخطاب قولان؛ أحدهما أنه الكلام، وهو ما تضمن نسبة إسنادية، والثاني أنه أخص منه وهو ما وجه من الكلام نحو الغير لإفادته"[44].

والواضح أن بدر الدين الزركشي(ت 794هـ) قد استفاد من هذا الزخم المصطلحي وهذه المفاهيم التي وضع أسسها الأصوليون قبله، وعرف الخطاب بقوله " إنه الكلام المقصود منه إفهام من هو متهيء للفهم"[45] ، ولعله قد تأثر إلى حدّ كبير بما صاغه الآمدي قبله ودعا إليه. فمفهوم الخطاب في علم الأصول عامة قد باح بحدوده وأفصح عن بنيته التي تحمل أبعادا تواصلية تداولية محضة، تحمل مؤشرات لغوية متنوعة دلالية وتخاطبية.

يقسم الأصوليون الخطاب بحسب ما أنتجه من دلالة إلى الجلي واضح الدلالة في مقابل الخطاب الغامض خفي الدلالة :

- واضح الدلالة : الكلام البين الذي يستدعي جهدا تأويليا وهو على أربعة أوجه:

1. الظاهر : ما دلّ على معنى بالوضع الأصلي أو العرفي، ويحتمل غيره احتمالا مرجوحا [46].
2. المشهور : ما لا يتسرب إليه احتمال... فقولك الخمسة مثلا لا يحتمل الستة ولا الأربعة وسائر الأعداد. [47]

3. المفسر : ما احتاج إلى تفسير وبناء تأويل لتقريبه من الأذهان.وهو " ما ازداد وضوحا على النص، سواء كان بمعنى في النص أو بغيره ". [48]
4. المحكم ومعناه المتقن، وهو الخطاب/الكلام المنظم والمرتب ترتيبا مفيدا، إما علة ظاهر أو على تأويل.

- خفي الدلالة :الكلام الغامض الذي يفتقر إلى البيان وهو على أربعة أوجه:

1. الخفي : وهو ما اشتبه معناه وخفي مراده.
2. المشكل : وهو الكلام الذي يأتي على أشكال تربك المخاطب، ولا يعرف إلا بدليل.
3. المجمل : وهو اللفظ المختلط وفي الاصطلاح " ما خفي المراد منه بنفس اللفظ حقا، ولا يدرك إلا ببيان من المجمل[49].
4. المتشابه : وهو في الاصطلاح " اسم لما انقطع رجاء معرفة المراد منه، ولا يعرف معناه بحجة عدم إدراجه في كلام العرب[50] .

يظهر أن الأصوليين قد اهتموا بضبط آليات تفسير الخطاب وفهم مقاصده، وحصر مجال تأويله. كما أن فهم الخطاب -حسب إشاراتهم – "ينبنى على ضرورة وجود خلفية مشتركة لعملية التخاطب؛ هذه الخلفية ترفدها منظومة الاعتقادات التي يؤمن بها متلقي الخطاب في كل زمان ومكان، سواء بخصوص المتكلم الأول/ المتكلم المبلغ وحكمته، أو بخصوص الخطاب نفسه وغاياته. وهي رغم ثباتها المضموني؛ فإن عمومية مقاصدها تسمح بتجدّدها وفق اجتهادات المتلقي وسياقات التأويل... ولم يغب عنهم ضرورة وجود خلفية مشتركة للتخاطب ينبني عليها تشكل الخطاب وفهمه معا، وإدراك مقاصد المتكلم وأغراضه ومراداته "[51] .

5- تجليات مفهوم الخطاب / الكلام ومنزلته في البلاغة والنقد الأدبي:

يعدّ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ) أحد الفحول في عصره، وأكثر النقاد والبلاغيين شهرة وحظوة في وسطه، تحسب له الرّيادة في عرض معجزة الصادق الأمين، وبسط القضايا التي يزخر بها كلام الله علا وجلا. اهتم بالنثر ودعا الشعراء إلى الطلاوة والعذوبة والسهولة والفصاحة والرّقة في أشعارهم، ويظهر أنه لم يبرع في قول الشعر؛ ليتفوّق في تذوقه ونقده وتقويمه؛ يقول الهمداني " عُني الجاحظ بالنثر وحاول التفوق بالشعر، لكنه كان مشغولا عنه فلم ينل ما أمل "[52].

ويبدو أن الجاحظ يشترط في الكلام أن يكون متراصّا سهلا، تتلذذه الأذن ويصل إلى القلب في أبهى حلله وأليقها. وقد تحدث عن أجزاء الكلام وشروطه في قوله " وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا. فهو يجري على اللسان كما يجري الدّهان"[53]. لذلك وجب الاعتناء بالكلام من خلال سبكه سبكا واحدا، واختيار ألفاظه والمعاني التي تطرقها، وانتقاء الكلمات العذبة المتجانسة في نظمها بعيدا عن التشاكل والتعقيد؛ مما يسهل تأثيره على النفوس، وإدراكه إدراكا واعيا، فمحمود اللفظ لمحمود المعنى، وسخيف الألفاظ لسخيف المعاني. يقول أيضا واصفا مصدّر الخطاب " ينبغي

للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات[54].

يرتكز الخطاب في منظور الجاحظ على ضرورة التخفيف عن المستمع ومراعاة مقتضى الحال وقدرته على الاستيعاب، والموازنة بين المعاني والألفاظ وأقدار المقامات، كما يستدعي إقامة الحجة الدّامغة باستحضار سلطة اللغة في التوكيد والإلحاح والحجاج والتعضيد؛ يقول فيما نقله عن –عمرو بن لبيد- "إنك وإن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحبّة في الآذان المقبولة على الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب"[55].

وفي هذا السياق يضفي – محمد العمري- حكما على مقصدية المخاطب في البلاغة ومرامي الخطاب النقدي البلاغي بأنها تداولية في عمقها. يقول في كتابه (البلاغة العربية) " إن التداولية الحديثة بعد "جاحظي" في أصله، لاهتمام الجاحظ وتركيزه على هذا المستوى في كتابه " البيان والتبيين"، وعلى عملية التأثير في المتلقي والإقناع، وقد سميت هذه النظرية عنده، والتي تعرف اليوم ب(التداولية) بنظرية التأثير والمقام، ويضيف جازما " أن هذا البعد هو أحد الأبعاد الأساسية في البلاغة العربية، وهو بعد جاحظي[56].

وترتبط هذه البراغماتية في الخطاب عند – ابن سنان الخفاجي- بغرض الإفادة والإبلاغ في قوله "والكلام يتعلّق بالمعاني والفوائد بالمواضعة لا لشيء من أحواله" [57]. ويضيف شارحا أهم الشروط التي وجب على المتكلم إقحامها في كلامه ووضعها في صلب اهتماماته؛ " وإذا كنا قد بيّنا حدّ الكلام، وحقيقته. فينبغي أن نذكر حقيقة المتكلم فنقول: إن المتكلم من وقع الكلام الذي بيّنا حقيقته بحسب أحواله من قصده وإرادته واعتقاده وغير ذلك من الأمور الرّاجعة إليه حقيقة أو تقديرا، والذي يدلّ على ذلك أن أهل اللغة متى علموا وقوع الكلام بحسب أحوال أحدنا وصفوه بأنه متكلم، ومتى لم يعلموا ذلك أو يعتقدوه لم يصفه، وجرى هذا الوصف في معناه مجرى وصفهم لأحدنا بأنه ضارب ومحرّك ومسكن وما أشبه ذلك من الأفعال"[58]. فلمّا يكون للكلام وقع، وتكون للغة سلطة وإنجاز فعلي في الواقع يقع معه التأثير وإخضاع النفوس، جاز وصف ما قُدّم بالخطاب. وهذا ينطلي على ما أرساه – جون لانغشو أوستين- في بنائه التداولي لنظرية أفعال الكلام، وما تربوه من مفاهيم تتضام مع القصد والاستعمال وتغيير واقع سائد والمعارف المشتركة بين المتكلم والمستمع.

ويربط الجرجاني (ت471 هـ) الكلام بمستعمليه، ويراعي فيه عنصرا ثالثا ينضاف إلى أطروحة اللفظ والمعنى؛ وهو النظم. فاللفظ بمثابة حروف وكلمات أو وحدات بنيوية يستعيرها المتكلم لتأدية خطابه، والمعنى هو القصد الذي تبتغيه وتسعى من ورائه إلى خلق انفعالات وأحاسيس تستميل القلوب وتهتم بالمتلقي عبر إنتاج الفهم. وبهذا تكون الألفاظ قوالب للمعاني، والمعاني تلك المرامي التي تستنجد بها الألفاظ وتتشبث بإدراكها. فإذا تأملت المحيط

أدركت معجزة الخالق وتجلت لك عظمته، وإذا لمحت أزهارا في روض مريع أعجبت برونقها، وإذا حضرت جورا ساءك حاله أحسست بالظلم وتغير مزاجك.

هذا التداخل في الكلام بين اللفظ ومعناه؛ أنشأ فرقا ومجموعات منها من تشيد بالمعنى، ومنها من تستقبحه وتنتصر للّفظ، لكن الجرجاني اتخذ موقفا وسطا وحسم الخلاف وبلغ الغاية فيما بيّن وفصل، لما جمع بين الاثنين بواسطة النظم وحسن السبك وترتيب المعاني في النفس والألفاظ في النطق؛ يقول "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها، وذلك أنّا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه" .

إذن؛ فلا يصح تناول بلاغة الكلام دون الميل كلّ الميل إلى مقتضيات علم النحو، لأنه مقياس العلاقات التي تضبط النظم، به نستجلي التراكيب السليمة من اللاحنة. فإذا كان النحو يهتم بتراكيب الكلام من حيث الصحة والسلامة اللغوية، فإن البلاغة تبتدئ من حيث ينتهي النحو وتبحث في الجودة والفصاحة والبيان. ويكاد الجرجاني يقتفي آثار سابقه الجاحظ في استحضار فضل الخطاب ومزاياه، والاهتمام بحسن صياغته وسبكه؛ يقول في (أسرار البلاغة) " ... اعلم أن الكلام الذي يعطي العلوم منازلها، ويبين مراتبها، ويكشف عن صورها، ويجني صنوف ثمرها، ويدلّ على سرائرها، ويبرز مكنون ضمائرها، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان، ونبّه فيه على عظم الامتنان. فقال عز وجل من قائل: (الرحمن علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان)(الرحمن1-4) فلولاه لم تكن لتتعدّى فوائد العلم عالمه، ولا صحّ من العاقل أن يفتق أزاهير العقل كمائمه، ولتعطلت قوى الخاطر والأفكار من معانيها، واستوت القضية في موجودها وفانيها. نعم ، ولوقع الحيّ الحساس في مرتبة الجماد. ولكان الإدراك كالذي يوافيه من الأضداد. ولبقيت القلوب مقفلة تتصون ودائعها، والمعاني مسجوعة في مواضعها [59] .

لا مجال للشك أن في هذا النص حصرا للمفهوم التداولي للخطاب واستجلاءً للخدمات التي يقدمها قربانا لمستعمليه. فهو آلية من آليات نشر العلوم وتفتقها، وباعث من بواعث ارتياح القلوب واطمئنانها، به ميّز الله تعالى الإنسان وكرّمه للكشف عن سرائره ومكنوناته، وبواسطته نستخرج الحي الحساس من الساكن الجامد.

وتجدر الإشارة إلى أن الباحث التونسي – عبد الله صولة[60]- قد زاوج بين نظرية النحو العربي التقليدي وبين نظريات تحليل الخطاب المعاصرة والأصول التداولية في تصوره الذي يقول فيه: " إن نظرية النظم في القديم تلحّ بلغة نظريات تحليل الخطاب المعاصرة على ما يحصل في الجملة أو في النص من ظاهرة الانسجام (Cohérence) ذات الأصول النحوية من دون شك، أكثر بكثير من إلحاحها على ظاهرة الإفادة (Pertinence) فيه، التي هي ذات منطلقات وأصول تداولية [61] . ويقرر قائلا " إننا بدراسة اللغة القرآنية حجاجيا، نكون من ناحية أولى في صميم تداولية الخطاب أي في مجال بلاغة التأثير التي وقفوها (أي العرب) على دراسة الشعر، ونكون من ناحية ثانية خارج مجال 'بلاغة النظم' التي جعلوها لدراسة القرآن [62].

وأما السكاكي (626 هـ) الذي اتهم بالضحالة في أسلوبه، وبعده عن الذوق الفني في بلاغته، وحوكم بجريرة تقعيد الحقل البلاغي وإفساده بإقحام أعشاب ضارة إليه؛ كان في الحقيقة يحمل همّا مضاعفا تعلوه رغبة ملحّة في بناء نظرية محكمة في علم الأدب، وهي بمثابة مفتاح لكل المطالب العلمية في العربية التي يمتاح منها الباحث، ويرجع إليها في صياغة العمل الأدبي بكل تلاوينه. فهو لم ينشئ قطيعة تامة بين البلاغة وسائر العلوم، ولم يعزلها عن مسائل الصرف والنحو وعلم اللغة، بل كان يتطلّع إلى جمع الشتات في مشروع علم الأدب، بالارتكاز على بنية منهجية صارمة تلبي كل مقومات المنهج العلمي، وتستهدف التبسيط و" الاحتراز عن الخطإ في العربية وسلوك جادة الصواب فيها "[63]، وبسط الإعجاز القرآني " لاسيما إذا انظم إلى همّتك الشغف بالتلقي لمراد الله تعالى من كلامه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه"[64].

يبدو أن أبا يعقوب السكاكي – رحمه الله- كان يَحُوزُ فكرا سابقا لأوانه، لما انساق وراء تأسيس مشروع في علم الأدب يلمّ بعض العناصر وشيئا من الأوجه في قوله " واعلم أن علم الأدب متى كان الحامل على الخوض فيه مجرد الوقوف على بعض الأوضاع، وشيء من الاصطلاحات، فهو لديك على طرف التمام "[65]. ولإرساء هذه الأوضاع وضبط هذه الاصطلاحات، سارع إلى الانتقال من الجزء إلى الكل، ومن المفرد إلى المركب، وانطلق من المقدمات لينتهي إلى النتائج والخلاصات عبر الحدود، في تدرج منطقي عقلاني تطبعه الدقة والصرامة، بعدما لمح البعثرة والتفكك وغياب التكاملية في عصره.

واعتمد في تشكيل بنية (مفتاح العلوم) على ثلاثة أقسام هي ؛ الصرف والنحو وعلمي المعاني والبيان؛ جزّأ الصرف إلى ثلاثة فصول ممهدا لها بالحديث عن الكلمة وأنواعها. وجعل الفصل الأول في بيان حقيقة علم الصرف والتنبيه على ما يحتاج إليه في تحقيقها، والثاني في كيفية الوصول إليه، والثالث في بيان كونه كافيا لما علق به من الغرض. وأما علم النحو فقد انشطر إلى فصلين؛ فصل أول حدد فيه ماهية النحو، وفصل ثان ضبط فيه ما يفتقر إليه علم النحو، لينتهي إلى علمي المعاني والبيان، ويشرع في تحديد جوهرهما والقوانين المؤطرة لهما.

إن المتأمل لهذه الترسيمة وما تزخر به من انشطارات؛ يلمس دون أدنى شك صرامة السكاكي ووعيه التام بما يقوم به. وسيكون من الحيف وضربا من الخيال تصنيف هذه المخطوطة بفصولها وأبوابها ومنهجها العلمي الرصين ضمن خانة البلاغة وحدها، وإن كان قد حصر قوانينها وبسطها لفهم الخطاب وتفسيره. فالمفتاح يسعى في عمقه إلى تقويض موضوع الأدب وهدم حدوده ليشمل عناصر من علوم أخرى تساهم في بناء الفهم وإضفاء الأبعاد الفنية التي لا يخلو منها أي عمل أدبي.

ويظهر أن – رومان ياكبسون- قد أعطى لهذا المشروع صيغته النهائية حين قال "إن موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب وإنما " الأدبية" (Littérarité) أي ما يجعل من عمل ما عملا أدبيا، ومع ذلك، وحتى الآن، فإننا نستطيع أن نشبه مؤرخي الأدب بالشرطة التي تفكر في اعتقال شخص، فتصادر على سبيل الخطإ، كل ما وجدته في حجرته، وحتى الناس الذين يعبرون الطريقة القريبة منها. وهكذا فإن مؤرخي الأدب يأخذون أطرافا من كل

شيء: من الحياة الشخصية، ومن علم النفس، ومن السياسة، ومن الفلسفة. إنهم يركبون جمعا من الأبحاث التقليدية، بدلا من علم أدبي"[66] .

بناء على هذا التشبيه المغري؛ يصحّ أن نعتقد جازمين أن مؤلفنا –السكاكي- كان يرمي إلى تقنين البلاغة ضمن مشروع أساس وهو علم الأدب، وامتاح في سبيل ذلك أطرافا من كل شيء، من علم النحو، وعلم الصرف، وعلمي البيان والمعاني، وعلم اللغة وتمام تمامها.

وبخصوص دلالة الكلام وشرط صياغته في "مفتاح العلوم"، فقد لقي تفاعلا وتجاوبا عند أبي يعقوب السكاكي وغيره من البلاغيين في مبحث الخبر والإنشاء. فهم جميعا ينظرون إلى الجمل والعبارات في علاقتها بالمتكلم ضمن مقامات وأحوال معينة بخلاف النحاة. ويرتبط الكلام بمبحث الخبر والإنشاء من جهة رغبة المتكلم في الإفادة عن حدث (خبر) أو عن أمر يأمل حدوثه (إنشاء). فالكلام وفق هذا المبحث؛ إما أن يكون خبرا يقصد التبليغ بفحوى لا علم للمستمع به، يبدو مشوشا مبهما بالنسبة له ضمن واقع خارجي. أو أن يكون إنشاء متجردا عن العالم الخارجي، يستدعي مطلوبا لم يكن حاصلا وقت الطلب.

ويمكن صياغة قنوات الكلام/ الخطاب ومسالكه وفق مبحث الخبر والإنشاء عند البلاغيين في الخطاطة الآتية :

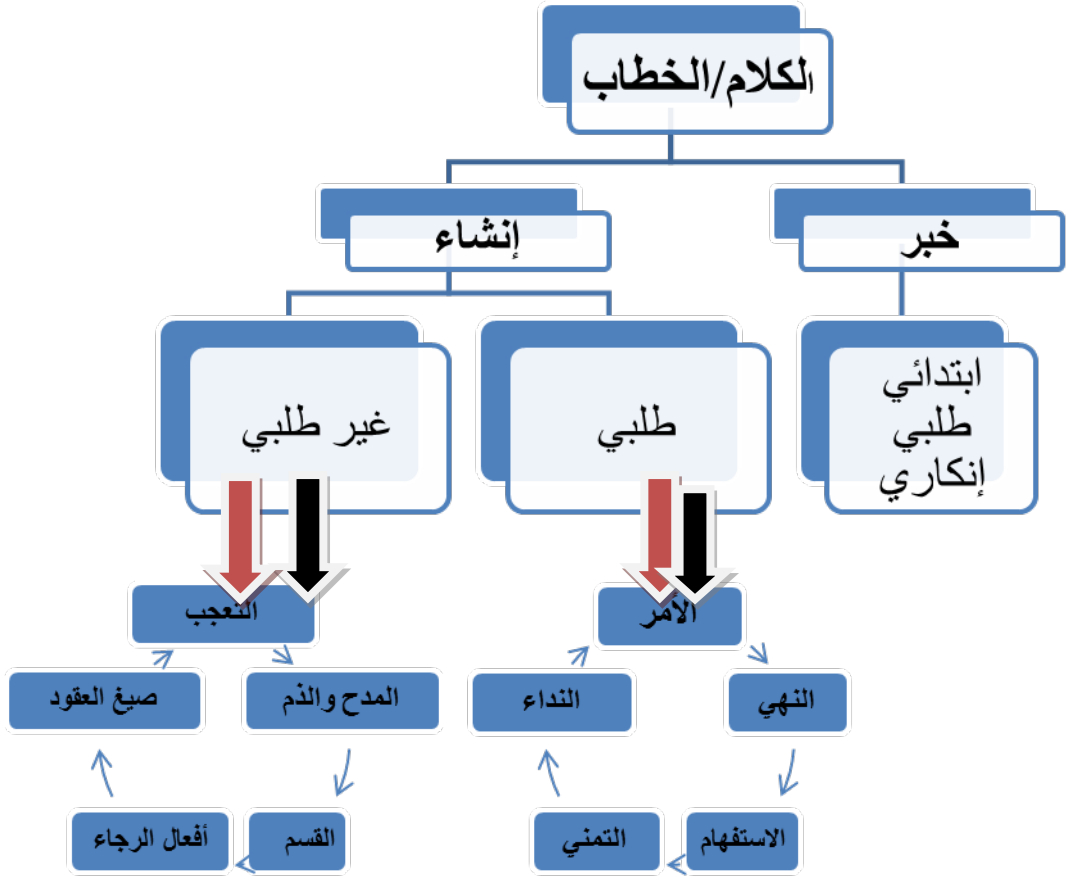

وقد ساهمت الأبحاث العلمية اللغوية التي أنجزها فلاسفة أوكسفورد (جون لانغشو أوستين، J.Austin ، وجون سورل، J.Searle) في إعادة صياغة هذا المبحث وفق نظرية الأفعال الكلامية، بعد الثورة على مذهب الفلاسفة

الوضعيين؛ يقول الباحث مسعود صحراوي " وتندرج ظاهرة الأفعال الكلامية تحديدا ضمن الظاهرة الأسلوبية المعنونة ب"الخبر والإنشاء" وما يتعلق بها من قضايا وفروع وتطبيقات. ولذلك تعتبر نظرية الخبر والإنشاء عند العرب من الجانب المعرفي العام مكافئة لمفهوم الأفعال الكلامية."[67]

ويبدو أن دلالة الكلام/الخطاب عند أبي يعقوب السكاكي والخطيب القزويني وثلة من البلاغيين؛ ترتكز على مبحث الخبر والإنشاء الذي يصطلح عليه – السكاكي- ب"قوانين الخبر والطلب" ، وتلحقه أبحاث اللغويين بمدرسة- أوكسفورد- بالمبحث المتعلق بنظرية أفعال الكلام ضمن النظرية التداولية، التي بمجرد النطق بها تنجز أفعالا في الواقع (الوصف/الإنجاز) غايتها التغيير والتعديل؛ كقول الأم مخاطبة ابنها ليلا : - **نظف أسنانك .**

المراد من أسلوب الأمر هنا ؛ هو إنجاز فعل متعلق بالخلود إلى النوم حالا، فإذا الطفل نظف أسنانه وخلد إلى النوم حصل التوفيق (في مقابل التصديق في البلاغة العربية)، أما إذا هو خالف الأمر ولم يخضع له يقع الإخفاق (في مقابل التكذيب في بلاغتنا التقليدية).

وبالانتقال إلى البحث عن دلالة الخطاب وسرّ توظيفه في المتون النقدية والبلاغية في الغرب الإسلامي، التي تنتمي إلى التقليد الدّائر حول المحور الفلسفي والفكر الهيليني؛ نلفيه في منزلة رفيعة تشكل ممارسة شمولية تكاملية تنم عن وعي بقوانينها التي تؤطرها وتتبناها. فقد اتخذ مجسما متضاما يحوي جمعًا من الفنون والأغراض والمقاصد؛ كالبرهان والجدل والشعر والخطابة والمغالطة، وأضحى ينبني على مفاهيم ومبادئ مؤطرة له رغبة في خلق نموذج يجمع الشتات ويلم الشعث.

ويتعلّق الأمر ههنا، بأهم المتون والدراسات النقدية البلاغية المقارنة التي انفجر معينها في المغرب، ووسمت بالمدرسة البلاغية العربية المغربية، يقول الدكتور – أمجد الطرابلسي- في وصفها " هي مدرسة يبدو واضحا، من خلال الآثار التي تركها لنا أعلامنا أنهم كانوا جميعا – مع تمكنهم حقّ التمكن من اللغة العربية وآدابها بعامّة، ومن الدراسات النقدية والبلاغية العربية بخاصة – أحسن اطلاعا على منطق أرسطو، وأعمق فهما لمضمون كتابيه (الشعر) و(الخطابة). ومن النقاد والبلاغيين الذين عرفتهم القرون السابقة في مشرق الوطن العربي ومغربه. فقد تم نقل كتب أرسطو إلى العربية في أواخر القرن الهجري الثالث. واستطاع رجال هذه المدرسة بفضل ثقافتهم العربية العميقة والمتفتحة على التفكير الأرسطي، أن يفيدوا الدرس البلاغي العربي بتلقيحه ببعض الأفكار الهيلينية تلقيحا ينم في الغالب عن فهم ووعي جديرين بالتقدير.

وأشهر أعلام هذه المدرسة ثلاثة :

- أولهم وأسبقهم زمنا الشاعر والأديب -**حازم القرطاجني**- المتوفى سنة (684هـ- 1285م)، ومعروف أن حازما ولد في الأندلس حيث درس علوم العربية وآدابها، كما عني بالمنطق والخطابة والشعر ومصنفات الفلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا وابن رشد، ثم نزع إلى مراكش في الثلاثينيات من القرن السابع إثر استرداد الإسبان لقرطبة وكثير غيرها من حواضر الأندلس، وهو صاحب كتاب " منهاج

البلغاء وسراج الأدباء" الذي عُني بتحقيقه ونشره أجمل عناية الأستاذ – محمد الحبيب ابن الخوجة- في تونس سنة 1966م.

- وثانيهم : العالم الرياضي والمفكر والأديب النابغة – **ابن البناء المراكشي**- المتوفى سنة(721هـ-1321م)، وله المصنفات الكثيرة في العلوم الرياضية من حساب وجبر ومقابلة – ومن هنا تلقيبه بالعددي- وهو مراكشي مولدا ووفاة، وكتابه الذي يعنينا هنا هو (الروض المريع في صناعة البديع).
- وثالثهم: -**أبو القاسم محمد السجلماسي**- الذي مازلنا نجهل الكثير عن تفاصيل حياته. بل لا نكاد نعرف على وجه التأكيد إلا أنه عاش في المغرب في أواخر القرن الهجري السابع ومفتتح الثامن. وأنه انتهى سنة (704هـ-1304م). من تأليفه " المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع)، محققه الأديب الأستاذ علال الغازي."[68]

وتماشيا وفق هذا التسلسل الكرونولوجي والترتيب الزمني الذي صاغه الدكتور أمجد الطرابلسي؛ سنحاول قدر المتاح أن نقف عند تجليات مفهوم الكلام/الخطاب التداولية استنادا إلى هذه المصنفات وأعلامها :

أولا : مفهوم الخطاب في "منهاج البلغاء وسراج الأدباء " لحازم القرطاجني :

المنهاج أولا مصنف في النقد والبلاغة، يبدو من خلاله أن حازما كان له اطلاعٌ واسع على التراث الأرسطي عبر شروح الفلاسفة المسلمين الفارابي وابن سينا. نقل عن الفارابي نقلين لا يُعرف مصدرهما، وورد اسم ابن سينا إحدى وعشرين مرّة، ونقل عنه خمسة عشر نقلا، والمثير للانتباه حسب – عباس ارحيلة- " أن حازما لم يذكر في كتابه ابن رشد، وهو (الشارح الأكبر) وبينهما قرب عهد (بين وفاة ابن رشد 595هـ وولادة حازم 608هـ حوالي اثني عشر عاما) وهما ينتميان إلى إقليم واحد."[69] ويعزو محقق المنهاج – الحبيب ابن الخوجة- باعث تجاوز ابن رشد وعدم الإشارة إليه، إلى تقصيره ومساهمته في إفساد المفاهيم الأرسطية بواسطة رداءة الترجمة وسوء النقل فضلا عن جملة من العيوب التي طالت تطبيق آراء أرسطو على الشعر، يقول موضحا "ولعلّه وجده غير أمين في ترجمته ل كتاب (الشعر) لأرسطو أو كان مقصرا لديه أن يضيف من ذلك شيئا إلى أصول النقد الشعري عند العرب، فدعاه إلى الاستدراك عليه.. "[70]. في حين ينزع عباس أرحيلة هذه الاتهامات عن ابن رشد الحفيد ويبرئه، ويذكر " أنه لم يترجم كتاب (الشعر) ولم يكن بصدد تأصيل نقد الشعر عند العرب، وإنما كان يمارس قراءة لكتاب (الشعر) في ضوء ما تأتى له من مخطوطات وشروح" [71].

ويعقب عما جُمِّعَ من أسباب وبواعث تتعلق بإغفال حازم لابن رشد؛ أنها تظل غير مقنعة، ويبقى هذا الرأي حسبه متأثرا برأي المستشرقين ومن تبعهم، طارحا سؤالا مركزيا مفاده : كيف كان يتأتى لأمثال حازم أن يستوعبوا التراث الأرسطي في ظل غياب الشارح الأكبر؟ [72]، بل ويواصل التعبير عن اندهاشه واستغرابه في قوله " ومن المثير للانتباه والعجب أن يستوعب أراء أرسطو في (الشعر) و(الخطابة) من خلال ما تأتّى له من شروح أو ترجمات دون أن يكون له إلمام باللغة اليونانية، وهو لا يستشهد بنص أجنبي قام بترجمته، إذ غالبا ما ينص على الترجمة."[73]

لكن المتأمل لموضوعات المنهاج يلمس ثقافة صاحبه الواسعة وحسّه الذوقي، وقدرته على الانتباه إلى جملة من النظريات والقضايا الشائكة بأسلوب فذ وسبك محكم. فبالرغم من التأطير – أو التقعيد إذا شئتم- الذي لفّ البلاغة قبله والشروع في استئصالها من خانة النقد. استطاع القرطاجني أن يوفق في الجمع بين الحقلين بمنهج منطقي رصين مع إضفائه لعدد من الشواهد المتنوعة من القرآن والشعر. فمنهاجه هذا كتاب حامل لموضوعات الرماني والجرجانيّ، ومكمل لصنيع كثير من النقاد أمثال قدامة بن جعفر والآمدي وابن سنان الخفاجي. يتكون عنوانه حسب –محمد العمري- من مركبين متناظرين: منهاج البلغاء، وسراج الأدباء. السراج يوازي المنهاج، والأدباء يوازي البلغاء. العلاقة بين المنهاج والسراج علاقة استعارية: المنهاج سراج. فكما أن السراج ينفي الظلمة، وينير الطريق نحو الهدف، فكذلك المنهاج، أي الخطة الواصفة للطريق توصل بدورها إلى النتيجة المتوخاة. الصورة المستعارة أقوى، لأنها ملموسة، واضطرارية، فبدون وجود سراج منير يستوي الأعمى والبصير، بل تكون حظوظ الأعمى أقوى لاستئناسه بالسير في الظلام، ومع ذلك فإنه لا يصل إلى الهدف ما لم يكن سلك الطريق، أي خزّن منهجا. إذن العطف هنا للبيان، يمكن الاستغناء عنه إجرائيا: منهاج البلغاء سراج الأدباء.[74]

ومن المؤكد أن –القرطاجني- قد تناول مفهوم الخطاب/الكلام بالدراسة والتحليل، وساهم في صياغة تصور شامل إزاءه، وبنى على ما صاغه النقاد والبلاغيون قبله. واهتم بالجانب التواصلي والتداولي للكلام وعناصره التخاطبية، كما اعتنى بدور اللغة في تدليل سوء الفهم وتبديده عبر الإفصاح والإعراب عن البعد النفعي التواصلي؛ يقول في باب (**معلم دالّ على طريق العلم بما ينقسم إليه{130- ب} الشعر بحسب اختلافات أنحاء التخاطب**) " لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج الناس إلى تفهمها بحسب احتياجاتهم إلى مُعاونة بعضهم بعضا على تحصيل المنافع وإزاحة المضارّ وإلى استفادتهم حقائق الأمور وإفادتها وجبَ أن يكون المتكلم يبتغي إمّا إفادة المخاطب، أو الاستفادة منه. إمّا بأن يلقي إليه لفظا يدلّ المخاطب إما على تأدية شيء من المتكلم إليه بالفعل أو تأدية معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول، وإما بأن يلقي إليه لفظا يدله على اقتضاء شيء منه إلى المتكلم بالفعل أو اقتضاء معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول، وكان الشيء المؤدى بالقول لا يخلو من أن يكون بيّنا فيقتصر به على الاقتصاص أو يكون مشتكلا فيؤدّى على جهات من التفصيل والبيان والاستدلال عليه والاحتجاج له.

فكلام المكلّم فيما يؤدّيه قسمان: قسم يقع فيه الاستدلال، وقسم الاستدلال فيه.

وكلامه فيما يقتضيه من المخاطب قسم واحد في أكثر الأمر؛ لأن الإجابة بالاستدلال أو عدمها في ذلك للمخاطب. وليس ذلك من كلام المتكلّم إلا أن يحكي ما دار بينه وبين مخاطبه، فيكون ذلك كالتركيب من القسمين، وليس به على الحقيقة لكون ذلك ليس من كلام واحد.

1- إضاءة: ولا يخلو فيما حكاه من ذلك أن يكون مسلّما أو محاجا. فإن كان مسلّما فهو الذي أشرنا إليه، وإن كان محاجّا كان من باب المشاجرة. وهو متركّب من تأدية المخاطب نقيضَ ما أدّاه المتكلم، والمتكلم

نقيضَ ما أدّاه المخاطب، كما أن باب الإشارة أيضا مركب من تأدية واقتضاء، لأن المتكلم يؤدي إلى المخاطب رأيَه ويقتضي قبوله.

2- تنوير: وجملة ما ينقسم إليه الكلام من جهة ما يقع فيه من تأدية واقتضاء باعتبار البساطة فيهما والتركيب {131- أ} ستة أقسام :

1. تأدية خاصّة
2. أو اقتضاء خاصّة.
3. أو تأدية واقتضاء معا.
4. وتأديتان من المتكلم والمخاطب.
5. أو اقتضاء منهما: فكان هذا يكون على جهة من الحيدة بأن يقتضي المتكلم من المخاطب شيئا فيقتضي المخاطب من المتكلم شيئا آخر قبل أن يؤدي إلى المتكلم ما اقتضاه.
6. أو يكون مركبا من اقتضاء المتكلم تتبعه تأدية من المخاطب على جهة السؤال والجواب.

فإذا حكى المتكلم كلام المخاطب مع كلامه، أو حكى كلامهما معا غيرُهما، وُجد الكلام ينقسم على هذا الاعتبار بحسب البساطة والتركيب ستة أقسام"[75].

يعلّق الباحث المغربي – محمد بن الحسن بن التجاني- في أطروحته " التلقي لدى حازم القرطاجني" على هذا التعريف بكونه ينهض باللغة على تحديد أطراف عملية التخاطب وهي : الناس والمتكلم والمخاطب، وتتمظهر اللغة في شكل كلام، ويصبح له فضل كبير باعتباره معبرا أو دليلا على المعاني. وأن اضطلاع الكلام بهذه المهمة جعله يضطلع في الحقيقة بوظيفة تواصلية أساسية واجتماعية في المقام الأول. ويبتدئ العنصر الوظيفي في استعمال الكلام من لدن حازم من خلال إناطته بغاية تحقيق المنافع وإزالة المضار"[76].

ولم يقف حازم عند هذا الحد؛ بل واصل تقريب مقتضيات هذه العملية التواصلية من المتلقي. وجعل من الخطاب آلية للإفادة والتأثير، واهتم بالألفاظ والمعاني التي تقتفي آثرها، وسائر عناصر الخطاب كالانسجام والوزن والتناسب. والحقيقة أنه " بضياع القسم الأول من كتاب منهاج البلغاء الذي يظن أن حازما خصّصه للألفاظ وتشكيل العبارات وما يتعلق بها، ضاع قسم مهم قد يكون خلاله أبرز رؤيته للغة، ونظرته إلى علاقة الألفاظ والمعاني[77].

ومما لاشك فيه أن حازما قد تناول بالدرجة الأولى الخطاب الشعري، وقدرته على إخضاع النفوس. فهو بمثابة الآمر الناهي في شؤون القبيلة العربية؛ يقول في منهاجه " لأن الشعر يختلف بحسب اختلاف أحوال القائلين وأحوال ما يتعرّضون للقول فيه، وبحسب اختلافهم في ما يستعملونه من اللغات، نجد واحدا يحسن في الفخر ولا يحسن في الضراعة، وآخر يحسن في الضراعة ولا يحسن في الفخر. ونجد واحدا يحسن في مدح الطبقات الأعْلَيْنَ وآخر لا يحسن إلا في أمداح الطبقات الأدْنَيْنَ، ونجد واحدا يحسن في النظم المصوغ من الألفاظ الحُوشية والغريبة

وآخر لا يحسن إلاّ في نظم اللغات المستعملة."[78] .

ثانيا : مفهوم الخطاب/الكلام عند ابن البنّاء المراكشي في "الروض المريع في صناعة البديع":

يجسد "الروض المريع" حلقة من سلسلة الدراسات النقدية والبلاغية التي انبجست من التقليد الدائر حول المحور الفلسفي الهيليني في الغرب الإسلامي. واصل فيه ابن البناء العددي طريق الفلاسفة المسلمين، وسيّج تقاليد المدرسة البلاغية مثلما رسمتها مؤلفات ابن عميرة المخزومي وحازم القرطاجني وأبي القاسم السجلماسي، واستطاع أن يحشد فيه تجربته الواسعة في المنطق والرياضيات والنقد الأدبي وعلم التفسير والأصول وعلم الكلام، وأن يضفي عليه رؤيته المتبصرة العميقة التي تمزج بين الذوق الفني والحس المنهجي الصارم. فقد حاول جاهدا تقديم تصوره التكاملي حول علم البلاغة، التي كانت تحتل منزلة سامية في النفوس، وتزخر ببالغ الأهمية في الثقافة العربية والإسلامية؛ منطلقا من فرضية محورية مفادها تقريب أصول البديع من الأذهان والمستمعين، ووضع آليات فهم الكتاب وتفسير السنة وباقي النظوم الأخرى. واختار للإعراب عن مقصديته ديباجة مؤلَّفه في قوله " وبعد، فغرضي أن أقَرِّبَ في هذا الكتاب من أصول صناعة البديع، ومن أساليبها ووجوه التفريع، تقريبا غير مخلٍّ، وتأليفاً غير مُمِلٍّ، يصغر جِرمه، ويكثر عِلمه، وسميته بالروض المريع في صناعة البديع، ومنفعته في زيادة المنة وفهم الكتاب والسنة"[79].

ويبدو أن النقاد والبلاغيين المغاربة لم ينساقوا وراء الاتجاه الذي قسم البلاغة إلى ثلاثة علوم، بل ظلوا متمسكين بمصطلح البيان بمعناه الواسع في مقابل البلاغة بمختلف أبوابها،[80] وارتبطوا بأصول البديع والذوق الرفيع. وإن إفصاح – ابن البناء- عن غرضه في المقدمة يدفعنا إلى تقدير أهمية هذه المخطوطة الرّصينة، والعمل على استئصال أبعادها التّداولية عبر زخم من المفاهيم المؤسسة لهذا الخطاب البلاغي، وعدد من الاصطلاحات المؤطرة لهذا المشروع التي تتمثل في الكلام والدلالة والبلاغة ومقاييس اللفظ ومعناه، ومفهوم الفصاحة ومستلزماتها، علاوة على أصول البديع والبيان وأغراض الخطاب البلاغي ومقاصده.

وبخصوص مبحث الكلام وأجزائه؛ يقسّمه ابن البناء إلى قسمين كبيرين: شعر ونثر؛ إذ يقول "وينقسم القول إلى موزون مقفى وهو المنظوم، وإلى غير ذلك وهو المنثور، ويستعمل كل واحد منهما في المخاطبات، وهي على خمسة أنحاء على ما أحصيت قديما. [81]. وإذ نظرنا جليّا إلى هذا التقسيم سنجده رائجا لدى نقاد اليونان والفلاسفة المسلمين؛ كابن وهب وابن سينا وابن رشد؛ فابن وهب مثلا يرى " أن سائر العبارة في لسان العرب إما أن يكون منظوما أو منثورا، والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام"[82].

ويتيح لنا هذا القول حسب – الدكتور المهدي لعرج - أن نسجل الملاحظات التالية :

- ✓ احترام ابن البناء التقسيم التقليدي للقول: شعر/نثر.
- ✓ انطلاقه من مبدإ أن كلاّ من المنظوم والمنثور يستعملان في المخاطبات، ومعنى هذا أن الحاجة ماسّة إلى استعمال القول المنظوم تماما، كما تمسّ الحاجة إلى استعمال الكلام المنثور. ونتصور أن -ابن البناء- من

خلال هذا الافتراض قصد إلى إضفاء الشرعية على الخطاب الشعري في سياق كان وما يزال ينظر فيه بعين من الرّيبة إلى قيمة الشعر والفائدة منه. فقد شكّل الخطاب الشعري باستمرار مسألة خلافية وقضية عميقة بين مختلف العلماء، بمن فيهم المشتغلين في دائرة البلاغة والنقد. وعلى الرغم من أن الجميع كان يسلم بأصالة هذا الجنس الكلامي، ولا يتردّد في استعماله وتوظيفه إلا أن الحاجة كانت ماسّة أيضا باستمرار إلى أهمية علاقته بمشروع وحدة الأمة وصيانة معتقدها .[83]

وحتى لا ينغمس – ابن البناء- في الطروحات والمسائل الخلافية بين من هو أجدر بصيانة هوية الأمة انبرى بسلاسة إلى ذكر الأوجه الخمسة المشكلة للمخاطبات معرّفا كل وجه على حدة:

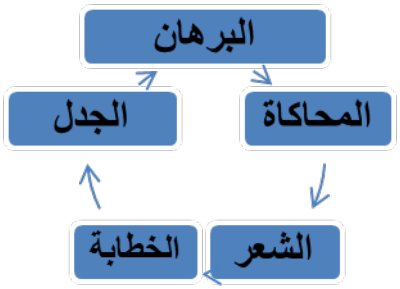

1- الخطاب البرهاني: وهو الخطاب بأقوال اضطرارية يحصل عنها اليقين.

2- الخطاب الجدلي: وهو الخطاب بأقوال مشهورة يحصل عنها الظن الغالب (الشك).

3- الخطاب الإقناعي: (الخطابة) وهو الخطاب بأقوال مقبولة يحصل عنها الإقناع.

4- الخطاب الشعري: وهو الخطاب بأقوال كاذبة مخيلة على سبيل المحاكاة يحصل عنها استفزاز بالتوهمات.

5- الخطاب المغالطاتي (السوفسطائي): وهو الخطاب بأقوال كاذبة ، يحصل عنها ظهور من ليس بحق أنه حق.

وقد صرّح بجلاء أن الخطابات الثلاثة الأولى :هي التي تستعمل في طريق الحق مستشهدا بالآية الكريمة (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) الآية – 13- "سورة النحل"، وهذا ما سلكه ابن رشد في تصنيفه الدلائل الخطابية والدلائل الجدلية والدلائل البرهانية حيث يقول:" فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدّق بالأقاويل الجدلية، ومنهم من يصدّق بالأقاويل الخطابية." [84]

أما النوعان الرابع والخامس؛ أي الخطاب الشعري والخطاب المغالطاتي، فيعتبرهما ابن البناء خارجين عن باب العلم وداخلين في باب الجهل، باب من يؤمن بأهمية الشعر من البشر، وباب من لا يرى له أية فائدة تذكر. وبالنظر إلى هذه الأوجه الخمسة التي حصرت فيها المخاطبات، ستلفي أن المناطقة قد تناولوها بالعناية والتفصيل، خاصة في أقسام الحجة والاستدلال كما هو واضح عند ابن سينا الذي يبدو أن – مؤلفنا- ابن البناء كان متأثرا به بشكل لافت وكبير. كما يجدر التنبيه إلى أنه قد استند في المفاضلة بين الشعر والنثر على رأي ابن سنان الخفاجي الذي يؤكد " أن النثر تعلّم فيه أمور لا تعلّم في النظم...وأن الحاجة إلى صناعة الكتابة ماسّة، والانتفاع بها في الأغراض ظاهر، والشعر فصل يستغني عنه ولا تقود ضرورة إليه ."[85]

وقد أعاد ابن البناء طرح ثنائية اللفظ والمعنى في تحديده جوهر الكلام؛ من خلال رؤية بلاغية ثاقبة تسعى إلى الجمع وتستدعي التكاملية، ويجزم أن العلاقة بينهما جدلية، كل واحد منهما يفتقر إلى الأخر، ولا يمكنه الاستغناء عنه. ويحرص على وضوح المعاني وتفاعل النفس معها عبر هجّ الغموض ونبذ الحشو في الباب المتعلّق باللفظ من جهة دلالته على المعنى؛ أي من حيث الإخلال والحشو والإطالة والإيجاز والمساواة، أما الباب المرتبط باللفظ من جهة مواجهة المعنى نحو الغرض المقصود في الخطاب، فقد حدّده في أحوال لم يفصل فيها وهي :

- الخروج من شيء إلى شيء.
- تشبيه شيء بشيء.
- تبديل شيء بشيء.
- تفصيل شيء بشيء.

إن المتأمل لهذه الإشارات التي قدّمها – ابن البناء- المنوطة بمفهوم الخطاب وارتباطه بمعناه من جهة دلالته عليه؛ يطرح تساؤلات حول ما إذا كان مؤلفنا مهتما فعلا بالبعد التداولي التواصلي، والنمط الحجاجي الإقناعي للكلام؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون سوى رصد لجملة من القواعد والاصطلاحات والقوانين الكلية لخدمة مباحث البلاغة؟.

ثالثا: مفهوم الخطاب عند أبي القاسم السجلماسي في " المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع":

يمثل "المنزع البديع" بأثره الهيليني وأسلوبه الفلسفي والمنطقي جنساً فذا في النقد الأدبي المقارن، يحمل في طيّاته تفاعل الثقافة العربية الإسلامية والاتجاه اليوناني في دائرة النقد والبلاغة. عمد فيه السّجلماسي إلى إحصاء أساليب البديع وترتيبها في أجناس عاليّة هي : الإيجاز، والتخييل، والإشارة، والمبالغة، والرّصف، والمظاهرة، والتوضيح، والاتساع، والانثناء، والتكرير. واعتبر هذه الأقسام منفذا لإدراك الإعجاز البياني للقرآن الكريم، ونموذجا للوقوف عند لطائفه ومعانيه الرّائقة. ومن هنا يقول كاشفا عن غايته " فقصدُنا في هذا الكتاب الملقّب بكتاب "المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع" إحصاء قوانين أساليب النظوم التي تشتمل عليها الصناعة الموضوعيةُ لعلم البيان وأساليب البديع، وتجنيسها في التصنيف وترتيب أجزاء الصناعة في التأليف، على جهة الجنس والنوع، وتمهيد الأصل من ذلك للفرع، وتحرير تلك القوانين الكلّية، وتجريدها من المواد الجزئية بقدر الطاقة، وجهد الاستطاعة، والله تعالى وليّ التسديد، والكفيل بالتأييد. "[86].

والمرجّح أن -أبا القاسم السجلماسي- يأمل وضع قوانين كلية لصناعة البيان، ولم يأبه حسب -عباس أرحيلة- "بالتقسيم الثلاثي للبلاغة الذي عُرف على عهده في المشرق: فالبيان والبلاغة والبديع عنده سواء، وتقسيمه البلاغة عشرة أجناس يذكرنا بتقسيم الرماني(384هـ) الذي جعل البلاغة عشرة أقسام منها: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان"[87].

ويرى علال الغازي (محقق المنزع) أن حصر المؤلف لنظريته في علم " الأساليب" داخل عشرة أجناس عاليّة؛ هو عمل يهدف به إلى إزالة الفوضى والاضطراب الذي عاش فيه المصطلح البلاغي خارج صناعة تحكمه كما حكمت مصطلحات النحو واللغة والعروض والمنطق وعلم الكلام والتفسير والفقه والحديث وغيرها [88]. وتماشيا مع همّ إزاحة هذه الفوضى العائمة انشغل على ترتيب مقولات البلاغة ضمن أجناس عالية تخضع لمنزع رصين في التصنيف والتحليل والنمذجة، لا تتداخل أنواعه ولا يشوبها الالتباس على حدّ قوله " فالجنس العالي لا يترتب تحت شيء ولا يُحمل على جنس آخر عال أصلا لما قد سبق بيانه، والنوع القسيم لا يُحمل على قسيمه ولا على نوع آخر تحت جنس آخر، ولا يترتب تحته من قبل ارتقائهما معاً إلى جنس يعمّهما معا، وارتقاء واحد واحد من النوعين اللذين تحت جنسين عاليين إلى جنس غير الجنس الذي يرتقي إليه الآخر"[89].

والملاحظ أن السجلماسي لا يشير في بعض المواقف إلى مصادره إلا في غضون التحليل والتفسير خاصة لما تناول قضية التخييل في الخطاب المنوط بالشعر في العملية الإبداعية، وجعلها جنسا عاليا من علم البيان تشتمل على أربعة أنواع تشترك فيه هي : التشبيه والاستعارة والمماثلة والمجاز. واعتبر الخطاب الشعري "كلاما مخيلا مؤلفا من أقوال موزونة متساوية، وعند العرب مقفاة. ومعنى كونها موزونة: هي أن يكون كلّ قول منها مؤلفا من أقوال إيقاعية، فإن عدد زمانه مساو لعدد زمان الآخر. ومعنى كونها مقفاة هو: أن تكون الحروف التي يُختم بها كل قول منها واحدة، وكل معنى من هذه المعاني فله صناعة تنظر فيه إما بالتجزئة، وإما بالكلية "[90].

يبدو أنه يسعى إلى بناء نظرية المعنى، واعتبر في سبيل ذلك جوهر كل خطاب في معناه، مما يعيد إلى الأذهان قضية اللفظ والمعنى، التي صاغها أبو القاسم وفق نسق أسلوبي يقوم على تكسير حاجز الثنائية. اقتسم هذا التصور مع جملة من النقاد قبله في وجه كل من انتصر لهذا الطرف مقابل الطرف الآخر، حيث يرى " إلزاميّة امتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا توجد بينهما منافرة "[91]. واستحضر عناصر السياق والمقصدية والدلالة شروطا لإنتاج الخطاب الدّال " وتوفر صحة المعنى وسلامة النظم وحسن البيان" [92]؛ بشكل يلفت الانتباه إلى الأدوات نفسها التي يشتغل بها الخطاب في لسانيات الاستعمال.

6- سيرورة الخطاب في اللسانيات الحديثة (لسانيات الوضع ولسانيات الاستعمال):

يتلون التعبير الاصطلاحي للخطاب تبعاً للحقول المعرفية التي يمتاح منها، فقد أضحى منذ ترجمة مقال " تحليل الخطاب" لزيليغ هاريس في مجلة (اللغات الفرنسية) سنة (1969) بواسطة " جون دوبوا" من بين المفاهيم الأكثر استعمالا وفعّالية وتداولية. بل أمسى يشكل كيمياء بين جملة من المجالات والتخصصات التي تختلف بتنوع المعارف الإنسانية؛ مما أولاه صبغة زئبقية ومشوشة ما لم يحصر ضمن سياق معرفي وإطار بحثي محدد؛ نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر: (اللسانيات البنيوية: سوسير وإميل بنفنيست)، و(السيميائيات التأويلية: غريماس وأمبيرتو إيكو)، و(الشعرية: إسهامات الشكلانيين الرّوس وتودوروف)، و(الدراسات الثقافية: ميشيل فوكو)، و(اللسانيات التداولية المؤسسة على الأبعاد الوظيفية: مانغونو وشارودوا وسيمون ديك والمتوكل وأخرون).

أ- لسانيات الوضع :

يفرّق الأب الرّوحي للسانيات الحديثة اللغوي السويسري"فرديناند دي سوسير" في كتابه "محاضرات في علم اللسان العام" بين اللسان (Langue) والكلام (Parole).ويرى أن اللغة (Langage) هي الجديرة بالدّراسة والاهتمام لكونها ظاهرة اجتماعية ونسق لغوي قائم في ذاته، وخاص بكل مجتمع على حدة. يسعفنا في الوصول إلى المشترك بين الأفراد والجماعات، وإدراك كيفية اشتغال الذهن البشري. أما الكلام الذي يرادف مفهوم الخطاب في اللسانيات البنيوية؛ فهو تحقق فردي وممارسة فعلية للعلامات اللسانية من جانب أحادي مرتبط بالذات المتكلمة، من سماته التعدد والتلون والمراوغة. وعليه فإن اللسان بنية مغلقة يصعب على أي كان أن يغيره ويتصرّف في حدوده، واللسانيات في تحديدها الدقيق "هي دراسة علمية للغة البشرية، التي تقوم على عنصر الملاحظة لتمييز الحقائق " [93].

ويرجع الفضل في إعادة إحياء هذا المفهوم وإيلائه عناية فائقة إلى اللغوي الفرنسي "إيميل بنفنيست" الذي استفاد من محاضرات سوسير، وانتقد أطروحته القائمة على اعتباطية العلاقة بين الدّال والمدلول، وضعف الكلام/الخطاب في إرساء تصور علمي عقلاني. وميّز بين الملفوظ (Enoncé): باعتباره قولا، والتلفظ (Enonciation): وهو كيمياء بين مجالات متفرقة تعدّه فعلا ذاتيا وإجراء فرديا لما قيل.

أما سيمياء التواصل مع لوتمان وورومان جاكبسون؛ فقد تجاوزت المفاهيم الشكلية للخطاب لتبحث في أطرافه ووظائفه اللغوية في إطار تصور ناضج يتكون من :

السياق (المرجع)

المرسل (الذات المتكلمة) ⟸ الرسالة ⟸ المرسل إليه (المتلقي)

اتصال – صلة / شفرة – قانون

ويرى جاكبسون أنه لا يجب على دارسي الخطاب أن يقفوا عند حدوده اللسانية واللغوية؛ بل عليهم أن يتجاوزه إلى الداخل وأن ينطلقوا من أبعاده الفنية التي لا تخلو من الأدبية (Littérarité). ويؤكد أن كلّ عنصر من هذه الوظائف تتولد عنه وظيفة لسانية مختلفة يجملها إلى ست وظائف:

- **السياق** : وظيفة مرجعية.
- **المرسل** : وظيفة تعبيرية.
- **القناة**: وظيفة انتباهية.
- **القانون**: وظيفة ما وراء لغوية.
- **المرسل إليه**: وظيفة إفهامية.
- **الرسّالة** : وظيفة شعرية.

وتعدّ هذه النظرية التواصلية للخطاب من أهم النظريات اللسانية الحديثة التي تُنسب لمنظرها رومان جاكبسون رغم إرهاصاتها الأولى التي برزت على يد فرديناند دي سوسير، كما أن هذا الخطاب لم يستقم إلا في كنف المجهودات العلمية العميقة للشكلانيين الرّوس التي ارتكزت هي الأخرى على أرضية سوسير. واهتمت بالخصائص النوعية للموضوع الأدبي في قالب نظري جمالي وعلم أدبي مستقل. وفي المقابل ارتأى ميشيل فوكو أن يقحمه ضمن دائرة ضيّقة وأن يجعل منه كلاما مخنوقا، فهو بنية لسانية مغلقة مضطهدة، يثوي فيها المعنى خلف درجات تمارس عليه نوعا من الحصر والتضييق؛ يقول في هذا السياق " نعلم جيّدا أن ليس لنا الحق في قول كل شيء، في أيّة مناسبة، وأن أي شخص لا يستطيع أن يتحدّث كيفما اتفق في نهاية المطاف. ثمة قدسية الموضوع، وطقوس المقام، وحقّ الأفضلية، أو حق التفرد الذي يتمتع به الشخص المتحدث. نحن هنا بإزاء ثلاثة أنماط من الحظر تتعانق وتتآزر ويعدّل بعضها بعضا، لتشكل جميعا مصفاة تخضع لتحوير مستمر.[94]

فطبيعة الموضوع وطقوس المقام وحقّ الأفضلية هي عناصر تمارس الحظر على الخطاب، ولا يخرج عن هذه الضوابط الصارمة في نظر فوكو إلا المجانين وثلة من الحمقى الذين ينفرد موضوعهم بالشفافية والصّرامة والوضوح. لذلك نجد - رولان بارت - لا يفصل بين الذات المتكلمة (المنتجة) والخطاب (باعتباره بنية مغلقة) مما يوحي بحضور الذاتية وهيمنة الأيديولوجية في عملية إنجاز الكلام عن طريق الارتكاز على مقولات أساسية هي : الزمن والصيغة والجهة.

ب- لسانيات الاستعمال :

إن التداولية " مبادرة لسانية بدأ العمل بها منذ 1930 بواسطة (شالرل موريس وكارناب وشارل ساندريس بورس) تسعى إلى معالجة بناء الجملة في ظل علاقة علاماتها اللغوية بعضها ببعض"[95]. فهي مقاربة قمينة بالدّراسة والاهتمام، لأنها تجاوزت المزالق والمتاهات التي وقعت فيها لسانيات الوضع. وإن في الاشتغال بها والاعتماد عليها تصحيحا لبعض المسارات المنهجية للسانيات البنيوية (القدرة)، وحلاّ توفيقيا لجملة من المعيقات في المجالات المعرفية التي يرتكز عليها بناء الفهم وتحقيق التواصل وفق عناصر سياقية ومعارف عامة مشتركة بين المتحدثين والمنتفعين باللغة. فقد مكّنت الأبعاد التداولية الباحث من أن يمتلك آليات جديدة في البحث والتحليل وحصر مجال التأويل في فهم اللغة وسائر الخطاب.

وأسدى اللغوي الأمريكي " زيليغ هاريس" خدمة كبيرة للمهتمين بالتداوليات واللسانيات الوظيفية لمّا قام بتوسيع حدود البحث اللساني من الجملة إلى وحدة أكبر منها وهي: الخطاب، الذي بات لا يقارب إلا باستحضار البنى الاجتماعية التي يرتكز عليها والعناصر المقامية التي يتضح بها. فالتداوليون عادة ما يدرسون اللغة التي يتشكل منها الخطاب في الاستعمال، وفي علاقاتها بمتكلميها, يعرفه - دومينيك مانغونو- مثلا " بأنه يحيل على نوع من التناول للغة، أكثر مما يحيل على حقل بحثي محدد، فاللغة لا تعدّ بنية اعتباطية بل نشاطا لأفراد مندرجين في سياقات معيّنة "[96].

ويضع – مانغونو- بالتوافق مع -باتريك شارودو- مواصفات محددة لهذا المفهوم الخِطابي وهي :

- ✓ **الخطاب تنظيم أكبر من الجملة:** مع هذا فإن عبارة (ممنوع التدخين) تعدّ خطابا.
- ✓ **الخطاب موجه:** " إنه (موجه) لا فقط لأنه مصمم حسب مرمى المتكلم، وإنما لأنه يتطور في الزمان. إنه يبنى فعلا حسب غاية ويعتبر سائرا نحو جهة ما ".
- ✓ **الخطاب شكل من أشكال الفعل:** " إن كلّ ملفوظ هو عمل (وعد، اقترح، أكد، سأل...) يهدف إلى تغيير وضعيّة" . وهذا الطرح مستمد من نظرية (أعمال اللغة) عند أوستين (1962) وسورل (1969).
- ✓ **الخطاب تفاعل:** " إن كل تلفظ، ولو أنجز بدون حضور مرسل إليه، هو في الواقع داخل في تفاعلية تكوينية، فهو تبادل صريح أو ضمني مع متكلمين آخرين افتراضيين أو واقعيين، ويفترض دائما جهة تلفظ أخرى يتجه إليها المتكلم ويبني خطابه بالنسبة إليها."
- ✓ **الخطاب مقترن بسياق:** " إن الخطاب لا يقع في مقام كما لو لم يكن المقام سوى إطار زينة تحيط به؛ الواقع لا وجود لخطاب بدون أن يكون مظروفا في مقامه " أي؛ مقترنا بسياق.
- ✓ **الخطاب متكفل به:** أو نقول صادر عن ذات واعيّة.
- ✓ **الخطاب محكوم بمعايير:** " إنه يخضع ككل سلوك اجتماعي، لمعايير اجتماعية عامّة جدا؛ زيادة على هذا؛ فالنشاط محكوم كما تبين قوانين الخطاب، بمعايير خصوصية، كل عمل من أعمال اللغة يتضمن معايير خاصة."
- ✓ **الخطاب واقع بين خطاب:** " لا يكون للخطاب معنى إلا داخل عالم خطابات أخرى يشقّ لنفسه طريقا خلالها، ويجب لتأويل أدنى خطاب ربط علاقة بينه وبين أنواع مختلفة من الخطابات الأخرى."[97]

واستطاع النحو الوظيفي أن يبني تصورا متكاملا؛ يربط البنية الداخلية للخطاب بمراميه السياقية؛ فهو حسب – سيمون ديك- بمثابة لفظ عام أكثر من مجرّد جمل معزولة وقطع متناثرة؛ عمل الدكتور (أحمد المتوكل) على تقييدها بمعارف قبلية مشتركة بين الباث والمستقبل في قوله " هو كل لفظ يربط فيه ربط تبعيّة بين بنيته الدّاخلية وظروفه المقامية بالمعنى الواسع"[98]. والواضح أن هذا التحديد قد وسّع من دائرة الخطاب ووظائفه التداولية بين الذوات المتواصلة، وجعلها أوسع من الجملة والنص في تفاعل مع الأحوال النفسية والفضاء الزمكاني والعناصر اللسانية (السياق) والعناصر غير اللغوية (المقام). ويطرح هذا التصور كذلك ثنائية النص والخطاب؛ الذي توليه التداوليات ونظريات تحليل الخطاب بعامة، واللسانيات النّصية بخاصّة عناية فائقة؛ تقول – شيرلي طوماس- في هذا السياق " يدلّ النص على مستند مكتوب في اللغة المتداولة عكس الخطاب الذي يوحي بالتواصل الشفوي، ومع ذلك فإذا كان التمييز بين النص والخطاب نسبيا واضحا، فإن استعمال هذين المصطلحين في اللسانيات مسألة فيها مجازفة [99] ". وينحصر مفهوم النص عند – هاليداي ورقية حسن- (صاحبا كتاب الاتساق في اللغة

الانجليزية) " في كل متتالية من الجمل، شريطة أن تكون بين هذه الجمل علاقات ". إلا أن الكلمة الفصل تكمن في ما اقترحه – جون ميشيل أدم- وهو على الشكل الآتي :

- خطاب = نص + سياق .
- نص = خطاب _ سياق .[100]

يتضح جليّا أن هذا الاتجاه التداولي لا يهمل البنية اللغوية في تناوله الخطاب ؛ بل يضيف إليها حيثيات خارجية مؤثرة فيها. فهو نسيج جمالي بين الأجزاء البلاغية والأبعاد التداولية، هدفها إضاءة المعنى وتجنب سوء الفهم، وضمان التوازن والتفاعل بين الذات المتكلمة والذات المتقبلة.

7 - استجلاء مفهوم الخطاب في الثقافة العربية المعاصرة:

يطمح محمد عابد الجابري إلى إعادة بناء العقل العربي وبلورة اليقظة العربية الحديثة ضمن مشروعه الفكري الهائل، حيث يجسد مصنفه الموسوم بالخطاب العربي المعاصر أحد اللبنات الأولى لهذا المشروع. فهو كتاب فلسفي يتبنى المنهج النقدي التحليلي في معالجة القضايا السياسية الشائكة دون تمجيد أو تحقير، والمنهج الابستمولوجي التاريخي في رصد الأحداث التاريخية ضمن سيرورة محكمة بإتقان. تحمّس فيه الجابري لتقديم رؤية الفلاسفة والمناطقة العرب القدماء حول مفهوم الخطاب الذي يشكل حلقة وصل بين الكاتب المبدع والمتلقي القارئ. فهو حقّا لما يتحدّث عن الفكر العربي أو أي فكر فإنه يقصد أساسا مجموعة من النصوص. والنص حسبه " رسالة من الكاتب إلى القارئ، فهو خطاب، والاتصال بين الكاتب والقارئ إنما يتم عبر النص تماما مثلما أن الاتصال بين المتكلم والسّامع إنما يتم عبر الكلام. أي عبر الإشارات الصوتية، وكما يسهم السامع، مساهمة ضرورية في تحقيق هذا الاتصال الكلامي يساهم القارئ بدوره، مساهمة ضرورية في تحقيق " الاتصال الكتابي" عبر النص. "[101]

فالخطاب إذن مرآة تعكس جرأة صاحبه وقدرته على الإنتاج والبناء، وموسوعية القارئ النموذجي في الإدلاء بآرائه وأفكاره. فالاثنان معا يساهمان في بناء الخطاب؛ الكاتب بما يقوله، والقارئ بما يقرأه، كما هو الشأن في بناء (المنزل) " إذ لابد من استعمال مواد (مفاهيم) ولابد من إقامة علاقات معيّنة بين تلك المواد حتى تصبح بناء يشدّ بعضه بعضا (الاستدلال أو المحاكمة العقلية)."[102] فمهما كانت درجة وعي القارئ، فلاشك أنه يمارس في النص ما يمارسه مصدّر الكلام عند بناء خطابه؛عن طريق إبراز المسكوت عنه وإنتاج وجهة نظر بأدواته الذاتية والمغايرة تماما لآليات المتكلم.

أما كلمة (خطاب) عند – الناقد صلاح فضل- فهي تستمدّ مشروعيتها من طبيعة تصور المادة التي تعالجها والسياق الذي تندرج فيه، إذ لابد من الاحتكام إلى منظومة معرفية يتقاسمها الأديب والمتلقي، ولابد من إقحام السياق الذي يرد فيه الكلام، لما يحمله من مؤشرات دلالية مهمة في إنجاح العملية التواصلية أو الإبداعية. كما أن الإجراءات المنهجية المعتمدة في اختبار النصوص والخطابات قابلة للتعديل والتطوير. لذا فإن الخطاب لا تصحّ مقاربته إلا في ظل استحضار لطبيعة المادة المنطلق منها حتى تتضح الرؤية والنتائج. فهو في تقدير – صلاح

فضل- " هيكل متنامي لا يقوم في فراغ مثالي، بل هو خطاب على خطاب، أي أنه كاشف عن الخطاب الإبداعي الموازي له والممتد معه. [103] لأنه ينمو ويتوالد بواسطة إواليات خارجية تتمثل في المعرفة الخلفية والمقصدية وما يقوم به من علاقات التعاون والتعاضد، وإواليات داخلية عن طريق التفاعل مع نصوص أخرى بشكل منطقي محكوم بآليات تضبط تطوره وتوجهه نحو الهدف. يصطلح عليه – الناقد محمد مفتاح- " بالمدونة الكلامية والحدث التواصلي التفاعلي. له بداية ونهاية، أي انه مغلق كتابيا، لكنه توالدي معنويا، لأنه متوالد من أحداث تاريخية ونفسانية ولغوية...وتتناسل معه أحداث لغوية أخرى لاحقة له. "[104]

وقد اقترن هذا المصطلح " خطاب" في الثقافة العربية المعاصرة بحقول دلالية وافدة ليست من قبيل الانبثاق الذاتي؛ يقول – جابر عصفور- " إن أية نظرية عن الخطاب بعامة تتضمن نظرية عن المجتمع بالضرورة ."[105] بما معناه أن الأديب يحكي عن واقع مجتمعه ويعكس همومه ضمن خطابه بشكل جلي، فالظواهر الاجتماعية هي في الأصل ظوهر لغوية تتفاعل فيما بينها داخل دائرة واحدة. ويبدو بذلك أن للخطاب في هذا المنحى؛ جذور تداولية حجاجية تتناول قضايا محيطة بالبنى الخارجية في سياق تواصلي بين المتحدث والمستمع، دون أن تندرج تحت نظام اللغة وقوانينها وحدها. إنه في اعتقاد الباحثة –يمنى العيد- يضطلع بمهمة تداولية تتجلّى في إيصال الرسالة التي تغمرها الأيديولوجيا السائدة في المجتمع بشكل مبالغ فيه. ولعلّ هذا التداخل بين الأيديولوجي والذاتي والعناصر الاجتماعية الخارجية والبنى الداخلية للخطاب دفع الناقد – سعيد يقطين- ليعدّه مفهوما مائعا ومتعدد الدلالات.

خلاصة :

إن الخطاب مفهوم شائع ومترامي الأطراف في كل التخصصات العلمية والمعارف الإنسانية، يَفرضُ علينا ضبطهُ ضمن تخومه وحدوده المجالية، حتى تتضح مراميه وأبعاده الوظيفية. لذا كان من البدهيّ أن نبتدئ من معانيه التي تواضع عليها علماؤنا في التراث العربي، ويبدو أنها تقوم على عنصر المخاطبة والمشافهة ومراجعة الكلام. ودلالاته في الثقافة اليونانية التي تمزج بين الجدل والأخذ والردّ والعقل والنظام. وملامحه التداولية في البلاغة العربية حيث تنمّ عن وعي شامل وقدرة هائلة على الاقتراح والاستعمال بشكل دقيق، تجعل من - الخطاب - ممارسة جماعية تضم سيلاً من الأغراض والفنون والمقاصد كالبرهان والجدل والشعر والخطابة والمغالطة في قالب يلمّ سائر المخاطبات ويجمع شتاتها. إلا أننا نلحظُ أن هذا الاصطلاح سيكتسي مصداقية كبرى وواقعية مثلى في حقل اللسانيات وعلوم اللغة الحديثة، بفضل جهود اللغويين أمثال " دي سوسير وإميل بنفنيست" والتوزيعي الأمريكي " زيليغ هاريس" ، ورواد المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب واثنوغرافيا التواصل من قبيل "دومينيك مانغونو وباتريك شارودو" والباحثة الإيطالية "كاترين كربرات أوريكيوني" وعلماء اللسانيات النصية أمثال " جون ميشيل أدامز" و" هاليداي ورقية حسن" ... .

الخاتمة

الشيخ ابن عربي صاحب أحوال وجامع لعلوم كثيرة ومع ذلك له قـلم سيّال وعاطفة مُنبَجِسة ومتناثرة الرشّ والريّ ، فمهما حاول أن يتوارى خلف كلماته إلا أن حقيقة هذا الانـسان تبقى مشتركة مع بني جنسه ، وتعد العـناوين جـزءا مهمّا من النسيج العام والمنظومة المعرفية العميقة لـدى الشيخ محي الدين ابن عربي ، وهو مـا يميزه عن غيره لصدق الوارد النوراني المتصل والمتشوف لحقيقة الـوجود ، ومحـاولة ابن عربي دائما أن يبحث عن الشرعية المطلقة لفكره وما يرد عليه ، وهو المتجلى على الظاهر في أقل الجزئيات ابتداء ثم ما يؤلفه من كتب ، والعـناوين هي عتبة في هـذا البناء الذي يعد هامشا للنص .

إحالات البحث

[1] محمود فهمي حجازي : الأسس اللغوية لعلم المصطلح، ص 233.

[2] سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، المركز الثقافي العربي، 1988، ص 18.

[3] مختار الفجاري: " مفهوم الخطاب بين مرجعه الأصلي الغربي وتأصيله في اللغة العربية" ، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة الثانية، العدد 3، 1435 هـ.

[4] ميشال فوكو :" نظام الخطاب، تعريب أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي. 1988 ص 1.

[5] الفراهيدي : كتاب العين، تحقيق:مهدي المخزومي وإبراهيم السّامرائي، الجزء الرابع، ط1، بيروت، 1408هـ/ 1988م، ص 222.

[6] أحمد بن فارس بن زكاريا: معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط:عبد السلام محمد هارون،دار الجيل،المجلد الثاني،بيروت،ص 198.

[7] محمود بن عمر الزمخشري: أساس البلاغة، مادة (خطب)، الجزء الأول، ص 255.

[8] الرّازي : المختار الصحاح، باب الخاء، دار الرسالة ، الكويت، 1983، ص 137.

[9] ابن منظور : لسان العرب، المجلد الأول ، مادة (خطب)، ص 361.

[10] الفيروزآبادي مجد الدين : القاموس المحيط، الجزء الأول، دار الجيل، بيروت، مادة (خطب)، ص 65.

[11] الكفوي: الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق:عدنان درويشي ومحمد المصري،ط1،مؤسسة الرسالة، بيروت 1992، ص 419.

[12] التهانوي علي : كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: لطفي البديع، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، الجزء الثاني، 1972،ص 175.

[13] Encyclopédie universalise : Parties du Discours ; Ecrit par Barbara Cassin .

[14] ينظر الزواوي بعورة : مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو ، 2000، ص 90.

[15] عبد السلام حيمر؛ سوسيولوجيا الخطاب: من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا العقل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر؛ ص 12.

[16] André Lalande vocabulaire technique et critique de la philosophie (paris : presses universitaires de France .1996) pp. 277-278

[17] Le petit Robert ; sous la Direction de Josette Rey Debove Et Alain Rey 2001. P 735

[18] Larousse de Poche ; Librairie . P 113. 1968

[19] سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، المركز الثقافي العربي، 1988، ص 21.

[20] ينظر : الزواوي بعورة : مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو ، 2000، ص 90.

[21] سيبويه: الكتاب ؛ ج 2 / ص 130.

[22] أسعد خلف العوادي ؛ سياق الحال في كتاب سيبويه : دراسة في النحو والدّلالة ، ص 100.

[23] سيبويه :الكتاب ؛ ج 1 / ص 12.

[24] ابن جني : الخصائص ج 1 / ص 25.

[25] سيبويه : الكتاب ج 1 / ص 25 – 26.

[26] المصدر نفسه : ج 1 / ص 23.

[27] ابن جني : الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار، ط 2، ج 2، ص 17-18. د ت .

[28] المصدر نفسه : ص 18

[29] ابن منظور : لسان العرب ، مادة (كلم).

[30] ابن جني : الخصائص ، ص 360.

[31] المصدر نفسه : ج/1 ، ص 33.

[32] محمود فهمي حجازي : علم اللغة العربية ، دار غريب ، القاهرة، 1996، ص 9.

[33] محمد بن صالح العثيمين : شرح ألفية ابن مالك في ياب الكلام وما يتألف منه .

[34] أبو عبد الله محمد بن داود الصنهاجي : متن الأجرومية ، ط 1 ، 1991، ص 5.

[35] محمد بن صالح العثيمين : شرح الأجرومية ، ط 1، 2005 ، ص 13.

[36] ابن هشام : شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، ط 1 ، ص 6.,

[37] المصدر نفسه : ص 20.

[38] عبد السلام المسدي : اللسانيات وأسسها المعرفية ، ط 1 ، ص 767.

[39] ينظر : الإبهاج في شرح المنهاج: لتقي الدين أبي الحسن علي بن عبد الكافي السبكي (19/1) 1995.

[40] الزركشي : البحر المحيط في أصول الفقه : شرح رسالة الشافعي 10/1.

[41] محمد البخيث : سلم الوصول لشرح نهاية السول ، المطبعة السلفية ، 1 /58.

[42] الغزالي : المستصفى في علم الأصول ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1413، ط1 ، 80/1.

[43] الآمدي علي بن محمد:الإحكام في أصول الإحكام ،تحقيق :سيد الجميلي،دار الكتاب العربي،ط2، ج2 ،بيروت، ص1986،137.

[44] لطفي فكري محمد الجودي : جمالية الخطاب في النص القرآني : قراءة تحليلية في مظاهر الرؤية وآليات التكوين، ط1، 2014، ص 74.

[45] الزركشي : البحر المحيط في أصول الفقه، ج1، ط1، ص 168.

[46] الآمدي : الإحكام في أصول الإحكام ، 73/3.

[47] نفسه : 157/1.

[48] أصول البزدوي ، 1 / 49.

[49] أبو العباس شهاب الدين الملقب بالقرافي(ت 684هـ) : شرح تنقيح الفصول ، دار الكتب العلمية،ص 38، 2007.

[50] سعد الدين التفتازاني (ت 793 هـ) : التلويح على التوضيح ، دار الكتب العلمية ، 1/ 223.

[51] ثروت مرسي : في التداوليات الاستدلالية : قراءة تأصيلية في المفاهيم والسيرورات التأويلية ، دار كنوز للمعرفة ، ص 108-110، 2018.

[52] مقامات الهمداني : ص 75 – 77 .

[53] الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، د ت، ج 1 ، ص 67.

[54] نفسه : ص 1/ 138.

[55] نفسه : ص 1/ 144.

[56] محمد العمري : البلاغة العربية ، ص 293

[57] ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1982، ص 44.

[58] الخفاجي : سر الفصاحة، ص 44.

[59] الجرجاني : أسرار البلاغة، ص 2.

[60] عبد الله صولة : من الباحثين الدؤوبين في اللسانيات وعلوم الدلالة والأسلوبية والنقد والأدب في الجامعة التونسية، له كتاب هو في الأصل دكتوراه الدولة " الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية " نوقشت في منوبة بتونس عام 1997، وطبعت سنة 2002 و 2006.

[61] ينظر: صابر الحباشة : التداولية والحجاج مداخل ونصوص، الدار البيضاء، 2010، ص 59.

[62] نفسه : ص 144.

[63] السكاكي أبي يعقوب : مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلّق عليه نعيم زوزور، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط 1، 1983، ص 7.

[64] مفتاح العلوم : ص 7.

[65] مفتاح العلوم : ص 7.

[66] Groupe d' entrevernes :Analyse Sémiotique des textes Introduction (théorie-pratique) Presses Universitaires de Lyon ; P :7 .ينظر أيضا كتاب (الخطاب الروائي المغربي) لعبد الرحمان غانمي ، منشورات القلم المغربي، ص:22. :

[67] مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب ، ص: 49.

[68] علال الغازي : المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع الرباط ، ص 12-13-14.

[69] عباس ارحيلة : الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، 1995، ص 686: أخذ هو الأخرعن عبد الرحمن بدوي في كتابه " إلى طه حسين" ص 87.

[70] حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق :محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط 3، ص 118.

[71] عباس ارحيلة : الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، ص 687.

[72] نفسه : ص 687.

[73] نفسه : ص 688.

[74] محمد العمري : من النقد الأدبي إلى البلاغة العامة، من النص إلى الخطاب، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب عدد11 ، خريف 2017،ص 31، بني ملال، المغرب.

[75] حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، ص 311-312.

[76] محمد بن الحسن التجاني: التلقي لدى حازم القرطاجني من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء، 2011، ص 253.

[77] نفسه : ص 255.

[78] حازم القرطاحني: المنهاج : ص 338.

[79] ابن البناء المراكشي: الروض المريع في صناعة البديع، ص 69.

[80] ينظر : نشوء البلاغة العربية وتطورها في المغرب، رضوان بنشقرون، مجلة كلية الآداب فاس، المغرب،العدد السادس، السنة 1982-1983.

[81] ابن البناء المراكشي: الروض المريع في صناعة البديع، ص 81.

[82] ابن وهب : البرهان في وجوه البيان، ص 160 وما بعدها.

[83] المهدي لعرج: الخطاب البلاغي في كتاب الروض المريع في صناعة البديع لابن البناء المراكشي العددي، بني ملال، المغرب، 2018، ص 17-18.

[84] ابن رشد : فصل المقال في ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، ص 31.

[85] ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة، ص 340 .

[86] السجلماسي : المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق وتقديم علال الغازي، مكتبة المعارف بالرباط، 1980، ص 180.

[87] عباس أرحيلة: الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1999، ص 703.

[88] علال الغازي: مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن للهجرة، منشورات كلية الأداب الرباط رقم 42، المغرب، ص 503.

[89] المنزع البديع : ص 209.

[90] نفسه : ص 218.

[91] نفسه : ص 236.

[92] نفسه : ص 387.

[93] André Martinet : Eléments de linguistique général ;Nouvelle édition remaniée et mise a jour 1980 ; Paris ; page 6

[94] ميشال فوكو : نظام الخطاب، جينولوجيا المعرفة، تعريب أحمد السطاتي وعبد السلام بن عبد العالي، المغرب، 1988، ص 61.

[95] The Handbook of Pragmatics : Edited by Laurence R. Horn and Gregory Ward ; blackwell publishing 2006 ; p 4.

[96] دومينيك مانغونو:المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن،منشورات الاختلاف الجزائر،ط2008،1،ص 40.

[97] باتريك شارودو ودومينيك مانغونو: معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر لمهيري وحمادي صمود، دار سيناترا،تونس،2008، ص 183-184.

[98] أحمد المتوكل : قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من النص إلى الجملة، دار الأمان الرباط، ط1، 2001، ص 16.

[99] Carter- thomas ,Shirley – La Cohérence Textuelle : pour une nouvelle pédagogie de l'écrit ;paris ;Hartmann ;2000 ;p :27

[100] Adam (J-M) : Eléments de linguistique textuelle (théories et pratiques de l'analyse textuelle) Mardage; Liège ; p 11

[101] محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر، ص 10.

[102] نفسه : ص 10.

[103] صلاح فضل : بلاغة الخطاب، ص 7.

[104] محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، البيضاء/بيروت، ط3، 1992، ص 120.

[105] جابر عصفور : أفاق العصر، دار الهدى للثقافة والنشر، سوريا/دمشق، ط1، 1997، ص 50.